الجوانب التاريخية والفكرية والنفسية لغزوة بدر كما يصورها القرآن الكريم

تاريخ استلام البحث ١٩٩٩/١٢/١ تاريخ قبوله ٢٠٠٠/٨/١٥

د. أحمد بشايرة*

Abstract

This research deals with the great Badr conquest- A study, historical illustration, psychological and intellectual analysis in the light of the Holy Quran, especial surat Al Anfal, that had been revealed in connection of this conquest focussing the light on the divine arrangements that had been manifested by adapting the reasons and the preparation of the confrontation between the two parties. It has also been manifested by the divine support to Muslims, through forces and measures that influenced procured results, that happened according to God's wish and caused a historical miracle.

The study also revealed the Quranic access to manifesting these divine arrangements by linking the end of the conquest with its start and making a comparison between the state the Muslims reached and the state in which the battle ended.

The study also highlighted the characteristics related to title of the study, by which the Muslims were distinguished from the polytheists, as human exerted efforts dictated to the believers in order to accomplish victory.

In addition to that, the study dealt with the history of the conquest and with its historical, psychological, and intellectual impacts, especially on the Muslim side in order to promote it to be on the level of evolving events.

The researcher recommeded the necessity of taking examples, intellectual and educational methods and means useful for building the nations.

* أستاذ مساعد– كلية الشريعة والقانون/ جامعة اربد الأهلية

ملخص

يتناول هذا البحث غزوة بدر الكبرى من خلال دراسة عرض تاريخي وتحليل نفسي وفكري في ضوء القرآن الكريم، وبالأخص سورة الأنفال التي نزلت بخصوص التدبير الإلهي الهائل الذي ظهر من خلال تهيئة الأسباب وتمهيد اللقاء بين الطرفين، وإمداد المسلمين بقوى وتدبيرات متميزة كان لها دورها وأثرها في تحصيل النتيجة التي وقعت كما يريدها الله فأحدثت فيما بعد معجزة تاريخية.

كما كشف البحث عن المدخل القرآني إلى إظهار هذه التدبيرات الإلهية من خلال ربط آخر الغزوة بأولها وعقد مقارنة بين الحال التي خرج بها المسلمون والحال التي انتهت إليها المعركة.

كما أبرز البحث الخصائص ذات الصلة بعنوانه التي تميز بها الصف الإسلامي من المشركين كجهد بشري مفروض في حق المؤمنين لإنزال النصر.

ثم تناول البحث نتائج الغزوة وآثارها التاريخية والنفسية والفكرية وخاصة في الصف الإسلامي للارتقاء به إلى مستوى الأحداث المتجددة.

وقد أوصى الباحث بضرورة أخذ العبرة والدروس من الماضي للحاضر والمستقبل، واستقصاء الوسائل والمناهج الفكرية والتربوية في بناء الأمم.

مقدمة البحث:-

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى، أما بعد؛

فلأهمية دراسة السيرة النبوية من خلال القرآن في الكشف عن أهم قضاياها وأصحها ولتفعيل دور القرآن في توجيهاته وترجمته العملية في واقع حياة النبي ﷺ الذي هو خير أسوة للأمة في بناء شخصيتها واستجماع قوتها وإعادة دورها في الحياة كانت هذه الدراسة القرآنية جهداً متواضعاً في طريق العودة.

ولقد حرصت أن أجعل قوام هذه الدراسة مستنداً على آيات من القرآن الكريم سواء في الحديث عن الجوانب التاريخية أو النفسية أو الفكرية حيث يولي القرآن هذه الجوانب أهمية ملحوظة، وإن كنت أتوسع أحياناً في بعض القضايا التاريخية فللكشف عن أبعاد نص قرآني مثل قوله تعالى **(يجادلونك في الحق)** أو قوله **(ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد)**.

وقد وضع البحث ضمن المباحث التالية:

١. سبب الغزوة المباشر وغير المباشر.
٢. كيف استهلت سورة الأنفال الحديث عن غزوة بدر.
٣. سورة الأنفال تكشف عن الأسباب التي هيأها الله لتحقيق النصر.
٤. القرآن يكشف عن الفوارق الجوهرية بين فئة الإيمان وفئة الكفر.
٥. نشوب المعركة وما نزل فيها من آيات.
٦. نتائج المعركة وآثارها المباشرة وغير المباشرة.
٧. النتائج والتوصيات.

والله الموفق لخير مأمول

ArabLawInfo (www.arablawinfo.com)
Tel: 00962 (6) 55 20 783 - Fax: 00962 (6) 55 20 784 - P.O.Box: 8734 Amman 11121 Jordan
Um-Othayna/6th Circle- King Faisal Street - Building No. (38)

سبب الغزوة:-

للغزوة سبب حقيقي كشف عنه القرآن الكريم يتمشى مع سنة الله في بناء الأمم وإهلاك الظالمين أراد الله أن يظهره على يد رسوله الكريم ﷺ وصحابته الكرام، وهو قوله تعالى: ﴿ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين* ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون﴾ (الأنفال:٧-٨).

وسنة الله في إظهار الحق ومنع الفساد بدفع الناس وتحريك الصراع بين الحق والباطل: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ (البقرة: ٢٥١). ليمكن أرباب الخير والصلاح من إظهار عقائدهم وأداء عباداتهم والقيام بحق الله وحق العباد وحق المجتمع. (انظر: شلتوت: ١٩٨٣/٥٢٩).

أما السبب المباشر لهذه الغزوة الذي كان بمثابة العامل المساعد في التفاعلات الكيمائية فهو عير أبي سفيان التي كانت أنظار المسلمين متجهة نحوها يريدونها: "وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم" ويصور القرآن دورها في تحريك هذا الصراع بقوله: ﴿إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمر كان مفعولا﴾ (الأنفال:٤٢).

وبيان ذلك أن النبي ﷺ بعد الهجرة اتخذ المدينة المنورة قاعدة لحركة الدعوة والجهاد ومراكز لتجميع قوى الإيمان، فأراد أن يضرب حصارا اقتصاديا من هذا الموقع الاستراتيجي على قريش لإضعاف شوكتها وإرهاقها تمهيدا للمواجهة العسكرية السملحة. وضمن سلسلة من هذه التحرشات علم النبي ﷺ بقافلة لقريش قادمة من الشام يقودها أبو سفيان. في ثلاثين أو أربعين رجلا من قريش فانتدب المسلمين لملاقاتها فخرج معه ﷺ من كان حاضر الظهر وسرعان الناس حتى بلغ عددهم ثلاثمائة وأربعة عشر رجلا ولم يخرج المسلمون جميعا لعلمهم أن القافلة لا تحتاج إلى حشد كبير من القوة ولم يكن بحسبانهم أن النبي ﷺ يلقى حربا. (سيرة ابن هشام: ١٨٧/٢).

ولما دنا أبو سفيان من بلاد الحجاز أخذ يتحسس الأخبار حذرا على أموال قريش وتحفظا لنفسه وقافلته في اجتياز منطقة الخطر، فعلم من بعض الركبان بخروج النبي ﷺ لملاقاته فاتخذ على الفور إجراءين سريعين:

الأول: تغير مسار القافلة من الطريق المألوف إلى طريق بديل بعيد عن الأنظار.

الثاني: استأجر رجلاً من غفارا اسمه ضمضم بن عمرو يستصرخ قريشاً لحماية أموالهم.

فلما سمعت قريش بالخبر المثير هب رجالها وشبابها لإغاثة القافلة حتى بلغ عددهم بين التسعمائة والألف. (انظر: سيرة ابن هشام: ٢/١٥٥. ابن كثير، بداية /١٩٦٦/٣/٢٥٨).

وهكذا صرف الله القافلة عن طريق المسلمين وأخرج قريشاً بقوتها العسكرية وأصبحت الأحداث تسير في اتجاه غير متوقع في المنظور البشري لتقع المواجهة التي هيأ الله أسبابها ﴿ليقضي الله أمراً كان مفعولا﴾ (الأنفال:٤٢).

ولما بلغ الخبر النبي ﷺ حرص على تهيئة نفوس المؤمنين لتقبل الموقف الجديد والاستعداد له؛ فليس بمقدروهم زيادة العدد وتحسين العدة. وقد كان ذلك إذ أعلمهم بالأمر وقال: أشيروا علي أيها الناس، فردوا الأمر لله وأحسنوا الجواب الذي ينم عن غاية التصديق الإيماني بنبوة محمد ﷺ والتسليم لأمره، وأصبحوا يرون أنفسهم (كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون) لا يتوقعون نصراً أو قد يتأملونه ولكن بعد تضحيات جسام.

ووقعت المواجهة فعلاً صبيحة يوم الجمعة للسابع عشر من رمضان سنة اثنتين للهجرة، وحصل ما لم يكن في الحسبان: غلبت الفئة المؤمنة القليلة الفئة الكافرة الكثيرة، وولت قريش الأدبار، وحلت بها الهزيمة التي لا تصدق إلا في تاريخ معجزات الإيمان، وحقق الله الوعد فيمن حق عليه القول من زعماء قريش: فقتل قادتهم الذين كانوا يحملون لواء الصد عن سبيل الله، وأسر من أسر وهزم الجمع وولوا الأدبار وجمع المسلمون ما كان مفرقاً في أرض المعركة من غنائم القوم. فجعلها الله معجزة وآية باقية أبد الدهر. ﴿قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين﴾ (آل عمران:١٣).

كيف استهلت سورة الأنفال الحديث عن غزوة بدر:

نزلت سورة الأنفال سجلاً حافلاً بأحداث هذه الغزوة العظيمة التي رعتها عناية الله، وتابعت خطواتها بتقدير عجيب لم يكن مكشوفاً أثناء سير الأحداث للرؤية البشرية سوى رسول الله ﷺ الذي كان فيما أعلمه الله على علم ببعض مجرياتها. فلما نزلت هذه السورة كشفت بتصوير دقيق عن يد الله المدبرة التي سيرت أحداثها وهيأت أسبابها. وساقت المؤمنين إليها سوقاً لتنجز على أيديهم القدر، وأخرجت المشركين إليها زجاً ليوافوا حتفهم المحتوم.

ArabLawInfo (www.arablawinfo.com)
Tel: 00962 (6) 55 20 783 - Fax: 00962 (6) 55 20 784 - P.O.Box: 8734 Amman 11121 Jordan
Um-Othayna/6th Circle- King Faisal Street - Building No. (38)

-وكان أول ما استهلت به هذه السورة سؤال (انظر المصري:٨) إنكاري وقع بلسماً شـــافياً ودواء كافياً ورتقاً لفتق نزل بالصف الإسلامي وبالنفوس المؤمنة التي كانت قد بلغت مرتبة عاليـة في الذوق الإيماني الرفيع، ولكنها النفس البشرية التي يعتريها بعض الضعف الذي قد يخفي حتـى على الأكابر ولكن لا يخفى على علام الغيوب ليتـولاه بالرعايـة والإصـلاح (يسـئلونك عـن الأنفال)؟!!

إنه سؤال إنكاري عن الخلاف الذي حدث بين الصحابة الكرام على نتيجة المعركة مـن غنائم وأسلاب المنهزمين. حيث انقسم الصحابة ثلاث فرق كل يدعي أنه أحق بهذه الغنائم (انظـر: ابن كثير، البداية /١٩٦٦/٣/٣٠١، ابن هشام: ٢/٢١٤. هارون: ١٦٣).

روى الإمام أحمد عن أبي أمامة عن عبادة بن الصامت قال: خرجنـا مـع النبـي ﷺ فشهدت معه بدراً فالتقى الناس فهزم الله العدو، فانطلقت طائفة في آثـارهم يـهزمون ويقتلـون، وأكبت طائفة على المغنم يحوزونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العـدو منه غرة، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها وليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو لستم أحق به منا: نحن نفينـا منـها العدو وهزمناهم. وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا بـه فأنزل الله: ﴿يسئلونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾. (الأنفال: ١). (حنبل:٥/٣٢٤)[١].

وروى ابن اسحاق عن أبي أمامة الباهلي قال: سألت عبادة بن الصامت عـن الأنفـال فقال: فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله مـن أيدينـا، فجعله إلى رسوله ﷺ ، فقسمه بين المسلمين عن بواء؛ أي ساوى بين الفئـات الثـلاث الذيـن اختصموا . (الطبري،تفسير:٦/١٧٢).

ولعلك تعجب حين ترى أهل بدر يتكلمون في الغنائم وهم إما من المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم وهاجروا إلى الله، وإما من الأنصار الذين ضربوا أعلى أمثلة الإيثار والإيـواء ابتغاء مرضاة الله، فكيف يختلف أمثال هؤلاء على متاع الدنيا. (انظر: قطب، الظلال: ٣/٧٩٩).

وإذا أنعمنا النظر في حقيقة الموقف وجدنا أن كلامهم لم يكن للأنفال، لذات الأنفال وإنما كان لارتباطها بحسن البلاء في المعركة حيث كانت الأنفال شاهدة على حسـن البـلاء وكلـهم حريص على هذه الشهادة من رسول الله ﷺ حين يقره على ما في يده من الأنفال. (انظر: قطـب:

٧٩٩/٣). ومما يشهد لهذا ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما، قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ (من صنع كذا وكذا له كذا وكذا) فتسارع في ذلك شبان القوم وبقيت الشيوخ تحت الرايات، فلما كانت الغنائم جاءوا يطلبون الذي جعل لهم، فقال الشيوخ لا تستأثروا علينا فإنا كنا ردءاكم لو انكشفتم إلينا فتنازعوا فأنزل الله (يسئلونك عن الأنفال ....) (الطبري: ١٧١/٦)(٢).

وروى الثوري عن الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ:(من قتل قتيلاً له كذا وكذا ومن أتى بأسير فله كذا وكذا فجاء أبو اليسر بأسيرين، فقال: يا رسول الله صلى الله وسلم عليك: أنت وعدتنا فقام سعد بن عبادة، فقال: يا رسول الله، إنك لو أعطيت هؤلاء لم يبق لأصحابك شيء، وأنه لم يمنعنا من هذا زهاده في الأجر ولا جبن عن العدو، وإنما قمنا هذا المقام محافظة عليك أن يأتوك من ورائك فتشاجروا...ونزل القرآن ﴿يسألونك عن الأنفال. قل الأنفال لله والرسول﴾ (ابن كثير، تفسير: ١٩٧٧/٢٨٢/٢).

من هذا ترى أن اختلافهم إنما كان طلباً للشهادة على حسن البلاء في سبيل الله وهو في حقيقته أمر شريف، ولكن الله تعالى يريد لهم أن يرتفعوا بمستوى إيمانهم إلى ما هو أعظم من ذلك فيشكروا الله إذ أنجز على أيديهم هذا البلاء، فيدركوا يد الله الفاعلة المدبرة وهي تقلب الأحداث وتهيىء الأسباب لإنجاز الوعد الذي توجهوا إليه، وهم كأنهم يساقون إلى الموت وهم ينظرون، ولكن الله هو الذي تولاهم وأيدهم بنصره على ما هم عليه من ضعف وذل وقلة. فلا ينسبون حسن البلاء لأنفسهم. ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ (الأنفال:١٧).

وأمرهم أن يتقوا الله وهم الأتقياء ليزدادوا تقى يرتفع بهم عن أسباب الخلاف ويشدهم إلى ما فيه وحدة الصف وتماسكه من إصلاح ذات البين وطاعة الله ورسوله وتحقيق معاني الإيمان الحق، فكان من براعة المطلع أن يمتن عليهم بالنصر من خلال ذكر مظهره وهو الغنائم والدخول من هذا المدخل إلى إصلاح النفوس ودفعها للتحلي بالأوصاف المذكورة بعدها للمؤمنين. (انظر: شلتوت: ١٩٨٣/٥٣٦).

الكاف ربطت آخر الغزوة بأولها:-

بعد أن بدأت سورة الأنفال التساؤل عن الأنفال الذي هو نتيجة لآخر المعركة وما نزلت بسببه من ظهور خلاف تولته بالعلاج انتقلت إلى ما كان عليه حال المؤمنين عندما علموا بقدوم القوة العسكرية، وأصبحت المواجهة العسكرية هي المتوقعة بدلاً من القافلة.

وقد ربط القرآن الكريم بين المشهدين بحرف الكاف في قوله تعالى: ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾ (الأنفال:٥).

فهذه الكاف أداة تشبيه ولهذا ذهب المفسرون إلى تحديد المشبه والمشبه به وتلمس وجه الشبه بين الطرفين من خلال بيان وجه إعرابها وذكروا في ذلك وجوها عدة: أشهرها القول بأنها في محل رفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف تقديره هذه الحال كحال إخراجك[٣].

والمعنى تشبيه صورة بصورة: التساؤل عن الأنفال بطريقة جدل بعد ان تحقق النصر حرصا على الغنائم، بصورة الإخراج بالحق المصحوب بالمجادلة حرصا على الحياة وخوفا من الموت؛ ليذكرهم بمدى النقلة الواسعة التي نقلهم الله تعالى إليها، ومدى الفارق الكبير بين ما كانوا يتوقعون وبين ما ظفروا به تأنيبا للنفوس وردها إلى الشكر ونسبة البلاء الحسن لله الذي وهبهم الحياة التي يئسوا منها وأنالهم الظفر وزادهم فوق ذلك أنفالا زيادة. تناسوا كل ذلك واشتغلوا بهذه الزيادة يتساءلون عنها ويجادلون فيها.

وثمة صورة أخرى للمعنى لا تخرج عن المذكور وإنما هي صورة من مقتضياته، وهي أنهم يجادلون في الأنفال حرصا عليها كما جادلوك من قبل في القافلة حرصا عليها منشغلين بها عن الحق بعدما تبين إمعانا منهم في الحرص عليها؛ لأنها غنيمة سهلة مع روح الحق وبيانه[٤].

ومن خلال هذه المقارنة بين الله تعالى لهم مدى المفارقة بين ما يريدون وتصبو نفوسهم إليه من متاع الدنيا وما يعدهم الله به ويريده من إحقاق الحق وإبطال الباطل، وبين حالتهم النفسية التي توجهوا بها إلى القتال وحالتهم التي عادوا عليها. (انظر: المصري: ٨-٩).

ثم أقبل القرآن إليهم بكشف ما كان خفيا عن مداركهم من تدبير الله تعالى وهو يقودهم إلى إحقاق الحق وإبطال الباطل وما هيأه الله تعالى لذلك من أسباب حين كانت نفوسهم مشغولة بحظها تواقة للدنيا ومتاعها، والله يريدهم لغير ذلك فما جعلهم أصحاب نبيه ﷺ وما أخرجهم من بيوتهم إلا ليجعلهم أداة لإحقاق الحق وإبطال الباطل.

وقبل الدخول في تفصيل هذه الأسباب نقف عند صوره الجدل الذي صدر منهم وعن الأثر التربوي لهذه الآيات في النفوس.

ArabLawInfo (www.arablawinfo.com)
Tel: 00962 (6) 55 20 783 - Fax: 00962 (6) 55 20 784 - P.O.Box: 8734 Amman 11121 Jordan
Um-Othayna/6th Circle- King Faisal Street - Building No. (38)

صورة الجدل ونتيجته وآثاره:-

تكاد كتب السير تكتفي بذكر النتيجة التي أسفرت عنها المشاورة التي أجراها النبي ﷺ مع أصحابه قبل اللقاء بجيش المشركين، فتذكر موقف المقداد بن الأسود وموقف سعد بن معاذ، وما أسفرت عنه المشاورة من عزمهم على تنفيذ أمر النبي مهما كانت النتائج ومهما بلغت الأخطار، ولكن القرآن الكريم يكشف عن أمر حصل قبل هذه العزيمة وهو وقوع جدال في الحق: ﴿يجادلونك في الحق بعدما تبين﴾ (الأنفال:٦٠).

وكأني بابن مسعود يشير إلى هذا الموقف من خلال ضده حين يشيد بموقف المقداد بن الأسود حين يقول: شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إليه مما عدل به. أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول كما قال قوم موسى اذهب أنت وربك فقاتلا، ولكننا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك، فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره يعني قوله (البخاري: باب قصة غزوة بدر ٩٣/٥).

فهذه إشارة إلى تحول وجه النبي ﷺ إلى الإشراق من أثر السرور بعد موقف سابق معاكس.

ومما يزيد الأمر إيضاحاً ويدل على أن النبي ﷺ كان غاضباً قبل أن يقول المقداد ما قال: فذهب عنه الغضب وسر لقوله ما رواه ابن جرير الطبري في تاريخه من كلام ابن مسعود قال: وكان رسول الله ﷺ إذا غضب احمرت وجنتاه فاتاه المقداد على تلك الحال فقال ما قال (الطبري: تاريخ: ٤٣٤/٢).

وهذا يدل على أنه ﷺ حين أخبر المسلمين بخروج قريش واستشارهم بالمسير إليهم جادلوه. وأوضح صورة لهذا الجدل ما ذكره أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة: إني أخبرت عن عير أبي سفيان أنها مقبلة فهل لكم أن نخرج قبل هذه العير لعل الله يغنمناها) فقلنا: نعم، فخرج وخرجنا، فلما سرنا يوماً أو يومين قال لنا ما ترون في القوم فإنهم قد أخبروا بمخرجكم فقلنا: لا والله ما لنا طاقة بقتال القوم ولكن أردنا العير. ثم قال ما ترون في قتال القوم؟ فقلنا مثل ذلك. فقام المقداد بن عمرو فقال: إذا لا نقول لك يارسول الله كما قال قوم موسى لموسى: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾ فقال معشر الأنصار لو أنا

قلنا مثل ما قال المقداد أحب لنا من أن يكون لنا مال عظيم. فأنزل الله عز وجل على رسول الله ﷺ ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾ (السيوطي٤/١٤. وابن كثير، البداية، ٣/٢٦٣).

وهذا يدل على أن المجادلة إنما وقعت قبل أن يقول المقداد ما قال فكان موقفه حاسماً في تذكير المؤمنين بما يجب أن يكونوا عليه من الطاعة لرسول الله ﷺ بلا تردد. ولم يذكر ابن إسحاق صورة المجادلة، وإنما ذكر صورة الاتفاق التي كانت بعد المجادلة فقال: (فاستشار الناس وأخبرهم عن قريش فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن[٥].

ثم قام المقداد بن عمرو فقال: (يا رسول الله امض لما أراك الله...) إلى آخر قوله، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له به (ابن هشام: ١/٦١٤،١٣٦٩هـ).

ثم قال رسول الله ﷺ : أشيروا علي أيها الناس، وإنما يريد الأنصار وذلك أنهم عدد الناس وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت الينا فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا، فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا يكون الأنصار ترى عليها نصرة إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل قال: فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله.

فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك ثم قال: سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم (ابن هشام: ١/٦١٤-٦١٥-١٣٩٦هـ).

هذه صورة المشاورة التي بدأت بمجادلة ثم كان للمقداد الموقف الذي يغبط عليه في استحضار صورة خلاف بني اسرائيل مع نبيهم عليه السلام التي سجلت عليهم موقفاً ممقوتاً في كتاب الله، فانشرح صدره للحق وأدرك أنهم في موقف ابتلاء وتمحيص: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ (آل عمران:١٤٢). فسرعان ما هب وكأنه وجد كنزاً

أعظم مما كانوا يصبون اليه من أموال القافلة، إنه موقف إيماني يمكن أن يسجل لهم أو عليهم، فليكن لهم وهم في صحبة نبي من أنبياء الله ، يوجه مسيرة الحياة على وفق سنن إلهية تربط الأسباب بالمسببات والله قادر على أن ينجز وعده بنصر أنبيائه بحدث مباشر من عنده قد يخرج عن عالم الأسباب، وقد فعل ذلك مرات عدة بطوفان أو صيحة أو صاعقة أو ريح، فينجي النبي والذين آمنوا ويهلك عدوهم ولكن حين يكون عددهم، قلة، أما حين يكون الأتباع كثرة تشكل قوة قادرة على المواجهة فليكن الجهاد والبذل والتضحية وصدق البيع مع الله ليجري الله على أيديهم، بعد استسلامهم لحكمه، ما أراد.

ونرى انبعاث سعد رضي الله عنه معبراً عن لسان حال الأنصار بعده هذه الذكرى التي تنبه لها المقداد، فتزول غاشية الرغبة في الدنيا، وتقبل إشراقات الإيمان، ويستحضرون أنهم قد بايعوا بيعة الصدق والحق القائم على يقين تام بأنهم إنما وضعوا أيديهم بيد نبي من أنبياء الله والبيعة للنبي بيعة الله. ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾ (الفتح:١٠).

وأنهم إذ بايعوا هذه البيعة لم يعدلهم الخيار في أن يحددوا ساعة الوفاء، وإنما الوفاء المطلوب في الساعة التي يحددها الله ورسوله وليس عليهم إلا الوفاء لنبي الله فيما أحبوا او كرهوا، سواء في حاله عسر أو يسر؛ فالأمر ليس لهم، وإلا فما فائدة هذه البيعة إذا لم تسفر عن بيع للنفس برضا وتسليم من غير جدال ولا تردد؟ وهكذا كانوا.

وحين يذكرهم القرآن بالمخاوف التي كانوا يعيشونها والتردد الذي سبقت إليه النفس قبل الذكرى. والاستسلام للموت بعد الذكرى: ﴿كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾ (الأنفال: ٦). مقارنة بالحالة التي أفضوا إليها بعد النصر من إقبال على الأنفال واختلاف فيها وإظهار لحسن البلاء ليضعهم وجهاً لوجه أمام تربية اعتقادية وتربية نفسية لابد منها للترقي بالنفس إلى أعلى مدارج الكمال الإيماني. أما التربية الاعتقادية فبنسبة البلاء الحسن إلى صاحبه ومهيء أسبابه ومنزله: ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ (الأنفال:١٠) وهو نصر تجاوز كل حدود المقاييس والحسابات البشرية، ما كان للبشر بموازنتهم المادية أن يحلموا به.

وأما التربية النفسية فتلك الحالة تقودهم إلى إنكار الذات وتحقيق الذات في آن واحد.

فإنكار الذات في جانب الله تعالى وذلك بالإذعان للعبودية المطلقة والاستسلام الكامل ونسبة التوفيق في مراقي الخير إلى الفاعل الموفق له وهو الله تعالى: وأما تحقيق الذات فإنما يكون باستثمار ما وهب الإنسان من طاقات وقدرات في المجال الذي يرضاه الله ويوجه إليه،

وإنما يكون ذلك بتحقيق العبودية الكاملة لله تعالى في المجال الذي يطلب من الإنسان ويوجه اليه. ومن خلال ذلك يكون إنكار الذات بإقرار العبد بأن ما وهب من قدرات وطاقات ومواهب إنما هي من الله وما وفق إليه من تحقيق فوز أو خير يستحق عليه الثناء فإنما الموفق له الميسر لأسبابه هو الله فيتواضع الإنسان ويشكر ويرد الفضل لموليه. (أنظر: النحلاوي أصول التربية: ٩٩-١٩٧٩/١٠٢).

وهذه التربية النفسية ذات أثر تربوي اجتماعي حيث لا يحرص أحد على أن يستأثر على غيره بالنتائج المشتركة التي حققها الجهد الجماعي وإنما يرى كل واحد نفسه جزءاً من الأداة التي نفذ الفاعل الحقيقي بواسطتها الثمرة، فينظر إلى الآخرين بعين المساواة ويرى نفسه مجرد عضو من جهاز متكامل أدى بمجموعه المهمة المرادة. وهذا هو عين إصلاح البين الذي دعت إليه السورة الكريمة.

سورة الأنفال تكشف عن الأسباب لاتي هيأها الله لتحقيق النصر:

وبعد فلنعد إلى تفصيل الأسباب التي هيأها الله تعالى لإحقاق الحق وإبطال الباطل: حيث جعل الله تعالى سنته في مقاومة الفساد بدفع الناس بعضهم ببعض ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ (البقرة:٢٥١). وتظهر إرادة الله تعالى وتدبيره كأنما تسير وتتحرك بالجهد البشري، وإذا أراد الله أمراً هيأ له أسبابه، فانظر فيما كشف الله لنا من أسباب النصر في تدبيره لهذه المعركة.

١. الإمداد بالملائكة وكان ذلك إجابة لدعاء المؤمنين بطلب الغوث من الله، قال تعالى:﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين، وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ﴾ (الأنفال:٩-١٠). وقال تعالى في سورة آل عمران:﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون، إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين، بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين، وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ (آل عمران:١٢٣-١٢٦).

اتفق المفسرون وأصحاب السير على أن الملائكة شهدوا بدراً[٦] لدلالة آية الأنفال والأحاديث عن النبي ﷺ: منها ما رواه البخاري عن ابن رافع الزرقي عن أبيه وكان أبوه من

أهل بدر قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: **(ماتعدون أهل بدر فيكم؟ قال من أفضل المسلمين او كلمة نحوها، قال: وكذلك من شهد بدرا من الملائكة)** (البخاري، باب شهود الملائكة بدرا: ١٠٣/٥).

وإن عددهم ألف من الملائكة مردفين وإنما حضروا مددا للمسلمين استجابة لدعاء النبي ﷺ واستغاثته بالله.

ولكن الخلاف في تأويل ما جاء في سورة آل عمران: **هل هو بخصوص بدر أم أحد؟** حيث نجد للمفسرين فيها رأيين بارزين.

الأول: أن الآيات بخصوص أحد وأن قوله تعالى: ﴿ **ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون**﴾ (آل عمران: ١٢٣). **جملة معترضة ثم تابعت الآيات الحديث عن أحد بقوله تعالى:**﴿ **إذ تقول للمؤمنين....**﴾ حيث عدوا إذ تقول بدل ثان من (إذ غدوت) وأن هذا الكلام صدر منه ﷺ يوم أحد وكان وعدا مشروطا فلما لم يقع شرطه لم يقع الوعد ولهذا لم تنزل الملائكة يوم أحد[٦] والشرط قوله تعالى:﴿ إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا..﴾ فلما لم يصبروا عن الغنائم ولم يتقوا التقوى المطلوبة بمخالفة أمر النبي ﷺ لم تأت الملائكة.

وأنت ترى أن الشرط متعلق بما بعد بلى فكيف يدخلون به ما قبلها.

وكان الحامل على هذا القول هو القطع بأن عدد من شهد بدرا من الملائكة ألف فقط (انظر الطبري/تفسير:٤٥/٣). وهذا العدد ثلاثة آلاف وخمسة آلاف.

الثاني: أن الآيات كلها في الحديث عن شهود الملائكة بدرا للقطع بعدم شهود الملائكة أحدا؛ لأن الألف الذين شهدوا بدرا مردفين بغيرهم وهم ألفان ثم آلفان فكان المجموع بالإرداف الأول ثلاثة وبالتالي خمسة وهو كامل العدد، أو يكون المدد الواصل ثلاثة أما الخمسة فمشروطة بثلاثة شروط وهي: أن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا، فتحقق شرطان ولم يتحقق الثالث[٧].

ومما يؤكد أن هذه الآيات لبدر لا لأحد التعقيب عليها بقوله تعالى: ﴿وما جعله الله إلا بشرى﴾ وما جعل هذا الإمداد إلا بشرى أي أن هذا الإمداد قد جعله الله واقعا بالفعل، وإنما وقع بالفعل يوم بدر لا يوم أحد (الآلوسي:٤٦/٤) ويكون قوله تعالى: ﴿إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم﴾... متصل بالحديث عن بدر، وإذ ظرف لنصركم، وأكثر المفسرين أورد القولين دون ترجيح ظاهر لأحدهما، وبعد دراسة مستفيضة لأقوال المفسرين مع ربط الآيات بموضوعها وجو نزولها ومراعاة سياق الآيات وترابطها مع موضوعاتها أستطيع أن اقرر خلاصة ما توصلت إليه بالنقاط التالية:-

ArabLawInfo (www.arablawinfo.com)
Tel: 00962 (6) 55 20 783 - Fax: 00962 (6) 55 20 784 - P.O.Box: 8734 Amman 11121 Jordan
Um-Othayna/6th Circle- King Faisal Street - Building No. (38)

١. من المتفق عليه أن من شهد بدرا من الملائكة ألف لقوله تعـــالى: ﴿إني ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾ وكونهم مردفين يدل على وجود غيرهم، وأن العدد أكثر من ألف. وهذا ما تفســـره آيات سورة آل عمران، ولكن فيه تفصيل على النحو التالي.

٢. أن الآيات في سورة آل عمران نزلت في أحداث غزوة أحد لا غزوة بدر أي أن زمن نزولها كان مصاحبا لغزوة أحد، وهذا لا يمنع أن يذكرهم بنعمة الله عليهم بالنصر في بدر وهـــذا لا خلاف فيه وهو ظاهر في قوله تعالى: ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة﴾. (آل عمران: ١٢٣).

٣. هذا التذكير إنما وقع لعلاج ما أصابهم من الهم بالفشل على أثر إنزال عبدالله بن أبـــي بـــن سلول بثلث الجيش لقوله تعالى قبل هذه الآيات: ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا﴾ كأنما يقول لا تضعفوا ولا تجبنوا لقلة العدد فتذكروا يوم بدر إذ كنتم قلة فكثركم الله بالملائكة ونصركـــم على عدوكم.

٤. (إذ) في قوله تعالى: ﴿إذ تقول للمؤمنين﴾ ظرف ل (نصركم) (الرازي: ١٩٨١/٢٩٩/٨). أي يذكرهم بقول الرسول ﷺ للمؤمنين وقت نزول النصر ببدر: ﴿ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين﴾ (آل عمران:١٢٤).

٥. في دلالة قوله تعالى: (مردفين) أي متبعين أنفسهم آخرين من الملائكة أو متبعين غيرهم مـــن الملائكة (الزمخشري:١٤٦/٢). مثلهم أي أن الآلاف يتبعهم غيرهم أو بمعنـــى يردفـــهم غـــيرهم ويتبعهم ألوف آخر، وهذا وجه التوفيق بين الألف والثلاثة آلاف... (انظر ابـــن كثـــير: ٤١١/١، الألوسي، ٤٦/٤).

٦. المعنى المستفاد من قوله تعالى: ﴿ألن يكفيكم﴾... أي قد كفاكم إمداد الله لكم بما مجموعـــه ثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بالفعل. ولكن هذا المعنى صيغ بقالب الاســـتفهام التقريـــري الذي يطلب الإقرار بأن قد كفى، ثم قال تعالى مجيبا نفسه (بلى).

٧. أما قوله تعالى: ﴿إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف﴾ فجملة مســـتأنفة جديدة تتحدث عن واقع ما هم فيه من موقف طائفتين همتا بالفشل فكانت الخمســـة مفصولـــة عن الثلاثة تماما حيث الخمسة مشروطة والثلاثة ثابتة غير مشروطة. قال أبـــو حيـــان ولأن الوعد بثلاثة كان غير مشروط فوجب حصوله، وإنما حصل يوم بدر، والجمع بيـــن الآلـــف

والثلاثة آلاف غير مشروط فوجب حصوله، وإن ما حصل يوم بدر أنهم أمدوا أولا بألف ثم زيد فيهم ألفان (أبو حيان: ٣/٤٩/١٤٠٣هـ). وانظر: النيسابوري: ٥٧/٤).

٨. سياق آيات آل عمران يؤكد على ثبات نزول الملائكة يوم بدر وأن الحديث عنها بخصوص بدر، فقوله تعالى: ﴿ولقد نصركم الله ببدر﴾ يدل صراحة على ذلك، وفي قوله تعالى: ﴿وما جعله الله إلا بشرى﴾ (آل عمران: ١٢٦) أي أنه جعله واقعا محققا بشارة للمؤمنين بالنصر، وهذا إنما وقع يوم بدر. وفي قوله تعالى: ﴿ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين﴾ (آل عمران:١٢٧)[٨] ذكر لما وقع للمشركين يوم بدر لا يوم أحد.

دور الملائكة في المعركة:-

بينت الآيات القرآنية الغرض من نزول الملائكة بقوله تعالى: ﴿وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم﴾ (الأنفال:١٠). وقوله: ﴿إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾ (الأنفال:١٢).

وقوله تعالى: ﴿وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين﴾ (آل عمران:١٢٦-١٢٧).

فهذه الآيات تبين دور الملائكة وطبيعة مشاركتهم في المعركة مشاركة مادية ومعنوية، ويمكن إجمال هذا الدور بالنقاط التالية:-

١. إخبار النبي وهو المنوه عنه بقوله تعالى: ﴿إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم...﴾ الآية.

ومن هذا القبيل ما ذكره ابن إسحاق قال: "وقد خفق النبي ﷺ خفقة وهو في العريش فقال: أبشر يا أبا بكر أتاك النصر، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثنايا النقع (ابن هشام: ٦٢٧/١).

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال يوم بدر. هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب (البخاري: باب شهود الملائكة بدرا: ١٠٣/٥).

وفي حديث علي رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ ولأبي بكر يوم بدر مع أحدكما جبريل ومع الآخر ميكائيل، واسرافيل ملك عظيم يشهد القتال أو يكون في الصف[٩].

٢. ومنها رؤية الصحابة رضي الله عنهم، فعن أبي أسيد مالك بن ربيعة وكان شهد بدرا قال بعد أن ذهب بصره: لو كنت اليوم ببدر ومعي بصري لأريتكم الشعب الذي خرجت منه الملائكة، لا أشك فيه ولا أتمارى (ابن هشام: ٦٣٣/١. الطبري، تفسير: ٤٢٢/٣).

٣. ومنها إدراك بعض آثار الملائكة كسماع الصوت ورؤية فعلهم: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت فارس يقول: أقدم حيزوم فنظر إلى المشرك امامه فخر مستلقيا فنظر اليه فإذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه بضربة السوط، فاخضر ذلك فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ فقال: صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة (القشيري: ك الجهاد/ باب الإمداد بالملائكة يوم بدر: ٨٦/٨٥/١٢).

ثانيا: تطمين قلوب المؤمنين:

فحينما يشعر المؤمنون بحضور الملائكة تسكن نفوسهم إلى أن معونة الله ترعاهم وتحوطهم، وما شهود الملائكة إلا مظهر العناية الإلهية وسبب من الأسباب التي ينزل الله من خلالها نصره.

قال ابن كثير رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم﴾ (الأنفال:١٠)، أي وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالها إلا بشارة لكم وتطييبا لقلوبكم وتطمينا، وإلا فإنما النصر من عند الله الذي لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم من غير احتياج إلى قتالكم لهم، كما قال تعالى بعد أمره المؤمنين بالقتال: ﴿ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم﴾ (محمد:٤)، (ابن كثير: ٤١١/١).

ArabLawInfo (www.arablawinfo.com)
Tel: 00962 (6) 55 20 783 - Fax: 00962 (6) 55 20 784 - P.O.Box: 8734 Amman 11121 Jordan
Um-Othayna/6th Circle- King Faisal Street - Building No. (38)

ثالثا: تثبيت المؤمنين لقوله تعالى: ﴿فثبتوا الذين آمنوا﴾ (الأنفال:١٣):-

ذكر الإمام الرازي ثلاث صور لكيفية تثبيت المؤمنين. (الرازي:٢٣٢/٨). وانظر النيسابوري:١٣٢/٩).

الأولى: أنهم **(أي الملائكة)** عرفوا الرسول ﷺ أن الله ناصر المؤمنين والرسول عرف المؤمنين ذلك.

والثاني: أن الشيطان كما يمكنه الوسوسة إلى الإنسان يمكنه إلقاء الإلهام إليه. (أنظر، الدرة:١٩٧/٥).

أقول ومصداق هذا الوجه قول النبي ﷺ:(إن للشيطان لمة بابن أدم وللملك لمة)[١٠].

الثالث: الملائكة كانوا يتشبهون بصور رجال من معارفهم، وكانوا يمدونهم بالنصر والفتح والظفر. أقول ولا مانع من أن تكون هذه الصور كلها قد وقعت.

رابعا: المشاركة الفعلية في القتال والخلاف فيه:-

اختلف العلماء في قتال الملائكة يوم بدر (الرازي:٢٣٢/٨، الآلوسي:١١٨/٩)، فقال فريق: إنهم لم يقاتلوا وإنما كانوا عددا ومددا وبشارة للمؤمنين وتثبيتا لهم في النزال، حجتهم في ذلك قوله تعالى: ﴿وما جعله الله إلا بشرى﴾ (الأنفال:١٠)، فجعلوا هذا الحصر مانعا من القتال.

وأولوا قوله تعالى ﴿فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾ (الأنفال:١٢)، بأنه قول صادر من الملائكة للمؤمنين ليثبتوهم. قال البيضاوي: ومن منع ذلك- أي القتال- جعل الخطاب مع المؤمنين إما على تغيير الخطاب (البيضاوي:٤٤/٣)[١١]، أو على أن قوله "سألقي... إلى قوله... كل بنان" تلقين للملائكة [١٢] ما يثبتون به المؤمنين.

وقد ضعف الآلوسي هذا القول. وقال صاحب المنار، وأنكر أبو بكر الأصم قتال الملائكة وقال: "إن الملك الواحد يكفي في إهلاك أهل الأرض كما فعل جبريل بمدائن قوم لوط. فإذا حضر هو يوم بدر فأي حاجة إلى مقاتلة الناس مع الكفار، وبتقدير حضوره أي فائدة من إرسال سائر الملائكة (رضا:١١٣/٤).

والصواب وهو قول ابن عباس وعليه سائر المفسرين وأصحاب السير. (انظر: النيسابوري: ٥٨/٤) أن الملائكة قاتلت يوم بدر لظاهر الآية القرآنية "فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان" وهو من ايحاء الله تعالى للملائكة آمرا اياهم بتثبيت المؤمنين ومشاركتهم

ArabLawInfo (www.arablawinfo.com)
Tel: 00962 (6) 55 20 783 - Fax: 00962 (6) 55 20 784 - P.O.Box: 8734 Amman 11121 Jordan
Um-Othayna/6th Circle- King Faisal Street - Building No. (38)

في ضرب أعدائهم، ولا داعي لتفكيك أوصال النص القرآني، ويشهد لهذا، الحديث الصحيح الذي مر والأخبار الأخرى التي تقرب من التواتر (الرازي:٢٣٣/٨).

وأما وجه إنكار أبي بكر الأصم فلا حجة فيه، إذ إن مشاركة الملائكة في القتال بمقدار قريب من الجهد البشري، وليس بلازم إذا شاركوا في القتال أن يشاركوا بكل طاقتهم، وإنما بذلوا بمقدار تقع فيه البشارة للمؤمنين والمؤازرة لهم، لا أنهم تولوا أمر القتال كله (الرازي: ٢٣٣/٨).

الحصر المستفاد من قوله تعالى: ﴿وما جعله الله إلا بشرى﴾ (الأنفال:١٠) لا يمنع مشاركة الملائكة في القتال. والضمير في (جعله) عائد إلى الإمداد (انظر الآلوسي:١٧٤/٩، الرازي: ٢٣٥/٨، المصري: ٢٠٢) وهذا يعني أن البشارة وسيلة من وسائل إشعار المؤمنين بالإمداد، ومع ذلك فلا يعني هذا تعليق النصر بشهود الملائكة ولا قتالهم، وإنما كانوا سببا من الأسباب المتعددة التي هيأها الله لتحقيق النصر الذي هو من عنده وحده، فهو المؤثر الحقيقي سواء من خلال الأسباب أو بلا أسباب، ولذلك قال: ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ ليثق المؤمنون به وحده، ويتوكلوا عليه وحده فلا يركنوا إلى الأسباب إن وجدت ولا يقنطوا من النصر إن فقدت. (انظر: الآلوسي: ١٧٤/٩). قال الرازي: (وهذا تنبيه على أن إيمان العبد لا يكتمل إلا عند الإعراض عن الأسباب والإقبال بالكلية على مسبب الأسباب) (الرازي: ٢٣٦/٨، النيسابوري: ٦٠/٤).

وهكذا يربي المؤمن على أن لا يرى قوة إلى جانب قوة الله، ولا إرادة إلى جانب إرادته؛ فهو الفعال وحده وإليه يرد الأمر كله) (المصري:٢٠٥).

٢- تغشيتهم النعاس أمنة من الله. قال الله تعالى: ﴿إذ يغشيكم النعاس أمنة منه﴾ (الأنفال:١١) قال ابن مسعود رضي الله عنه: النعاس في القتال أمنة من الله عزوجل، وفي الصلاة من الشيطان (الطبري: ١٩٢/٦).

وقال علي رضي الله عنه: (ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة ويبكي حتى أصبح)، (ابن كثير:٣٠٣/٢).

وإذا استحضرنا الحالة النفسية التي كانوا عليها: ﴿كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾ (الأنفال:٦). إضافة إلى الإرهاق البدني من آثار السفر ندرك أهمية القاء النعاس وإرخاء البدن للنوم عند تقارب الصفوف في إزالة التوتر العصبي والقلق النفسي والإعياء البدني، وذلك أن الإنسان له طاقة محدودة على التحمل ويحتاج إلى قسط من الراحة والاسترخاء لتجديد نشاطه، وهكذا اضطرهم الله تعالى في أشد حالات الخوف والتعب إلى تجديد النشاط في أعضائهم

وأعصابهم ليستقبلوا المعركة بهمة جديدة. هذا على ما في النوم نفسه من أمن مـــن الله وبشـــارة بالنصر.

٣- نزول المطر وآثاره. قال تعالى: ﴿وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام﴾ (الأنفال:١١)، لما تقارب الجيشان وأصبح كل منهما على طـــرف من وادي بدر فالمسلمون إلى جهة الشمال منه، في العدوة الدنيا من المدينة، والمشـــركون إلـــى الجنوب في العدوة القصوى. ﴿إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى...﴾ (الأنفـــال:٤٢)، وأصبـــح اللقاء بين الطرفين وشيكا، هنا تعهد الله عباده المؤمنين أن يهيئ لهم أسباب الظفر. فأنزل عليـــهم الماء ليشربوا ويسقوا دوابهم ويغتسلوا ويتطهروا من الأحداث، ويريح ظواهرهم، ويذهب عنـــهم وساوس الشيطان، ويلبد الأرض تحت أقدامهم ليتمكنوا من السير على الرمل بثبـــات وســـرعة، فيصلوا ماء بدر قبل المشركين ويكون لهم بذلك السبق إلى اختيار أرض المعركة وفرض الموقـــع على الخصم.

روى الإمام الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزل النبي ﷺ، يعني حيـــن سار إلى بدر، والمسلمون بينهم وبين الماء رملة دعصة، فأصاب المسلمين ضعف شديد. وألقـــى الشيطان في قلوبهم الغيظ فوسوس بينهم: تزعمون أنكم أولياء الله وفيكـــم رســـوله وقـــد غلبكـــم المشركون على الماء وأنتم تصلون مجنبين. فأمطر الله عليهم مطرا شديدا، فشـــرب المســـلمون وتطهروا وأذهب الله عنهم رجز الشيطان، وثبت الرمل حين أصابه المطر، ومشى الناس عليـــه والداوب فسار إلى القوم... (الطبري:٦/١٩٤).

وظاهر هذه الراوية أن المشركين سبقوا المسلمين إلى ماء بدر ويؤكـــد هـــذا مـــا رواه الطبري عن ابن عباس من طريق آخر وعن الضحاك والسدي أيضا أن المشركين غلبـــوا علـــى الماء، (الطبري:٦/١٩٤).

وهذا الظاهر يتعارض مع رواية ابن اسحاق التي يقول فيها: ومضت قريش حتى نزلـــوا بالعدوة القصوى من الوادي خلف العقنقل وبطن الوادي، وهو يليل بين بدر وبين العقنقل، الكثيـــب الذي خلفه قريش. والقلب ببدر في العدوة الدنيا من بطن يليل إلى المدينـــة، وبعـــث الله الســـماء، وكان الوادي دهسا فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه منها ما لبد لهم الأرض ولم يمنعـــهم عـــن السير، وأصاب قريش منها ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه. فخرج رسول الله ﷺ يبـــادرهم إلى الماء حتى اذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به.(ابن هشام: ٦١٩/١).

ثم أشار الحباب بن المنذر على النبي ﷺ بالنزول عند أقرب ماء من قريش وتغوير بقية العيون، فيشرب المسلمون ولا يشرب المشركون، فأخذ ﷺ بمشورته. (انظر: ابن هشام: ٦١٩/١).

والذي يرى طبيعة الأرض عن كثب يدرك مدى التطابق في تصوير ابن هشام للموقع وان خبره لايتعارض مع ما ذكره الطبري، فإن مسيل ماء بدر يخرج إلى محاذاة الكثيب، وهو العقنقل الذي تعسكر خلفه قريش، فيمر سيل الماء من جوارهم. وأما الجهة الشمالية من وادي بدر فهي أرض رملية لينة يصعب السير عليها، وهي واقعة بين عيون بدر وبين العدوة الدنيا التي يعسكر فيها المسلمون، فلما نزل المطر لبد هذه الأرض الرملية فمكنت المسلمين من السبق إلى منابع الماء حتى نزلوا عند أقربها من قريش وغوروا الباقي- حسب مشورة الحباب بن المنذر- وبنوا عليها حوضا حجز الماء عن جريانه الطبيعي فاستأثر المسلمون بالماء دون المشركين، وهذه من نعم الله في تمكين المسلمين من فرض موقع المعركة، وإذهاب وساوس الشيطان الذي وسوس للمسلمين: (تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء) فها قد غلب المسلمون على الماء وخسئ الشيطان وأذهب الله رجزه. وتزود المسلمون من ماء المطر لطهارتهم قبل المسير إلى بدر وقد تحرجوا من الصلاة بغير طهارة- ولم يكن قد رخص لهم بالتيمم بعد- مما يفتح باب وسوسة الشيطان، فأغلق الله هذا الباب من وساوسه بالربط على القلوب ونشطت الأبدان بعد النوم والطهارة فاستجمعت قوتها من جديد.

فتكاملت للمسلمين الأسباب البدنية والمعنوية لتشتد عزيمتهم وتقوى نفوسهم على الثبات والإقدام، وتزداد ثقتهم بمعية الله تعالى ونصره.

٤- الربط على قلوب المؤمنين حيث كان من آثار اجتماع الدعاء ونزول الماء وإلقاء النعاس في وقت يذهب النوم ويبعث على الأرق الربط على قلوب المؤمنين: ﴿وليربط على قلوبكم﴾ (الأنفال:١١) وأصل الربط الشد بالمكان للحفظ (الأصفهاني:١٩٩٧)، ومنه يعد الاحتباس على الشيء مرابطة (وكل من صبر على أمر فقد ربط نفسه عليه) (الدرة:١٩٥/٥)، وربط الله على القلوب يكون بتقويتها وإنزال الثقة فيها بلطف الله تعالى (انظر: الآلوسي: ١٧٦/٩) ويفهم من هذا أن الربط على قلوب المؤمنين[١٣] يفيد استقرار اليقين والاطمئنان إلى نصر الله، وذهاب الوساوس والاضطراب من القلب، فتسكن النفوس إلى معية الله وتأييده، وتزداد الثقة بنزول نصر الله عند اشتداد الخطب، كما نزل الماء عندما اشتدت الحاجة إليه.

وهذا يهيء للمؤمنين حالة من أعظم الحالات التي يحتاجها الإنسان عند اشتداد الخطب وهو الهدوء في ساعات الشدائد التي يخشى أن تذهب بالأنفس.

(هذا الهدوء الذي يقترن بعدم المبالاة بالأخطار، لأن الأخطار يملكها من بيده ناصية كل شيء، ولأن الأمور تفوض إليه جل شأنه ولا يأتي من قبله إلا الخير والرحمة، هذا الهدوء يكسب المرء رباطة جاش وتصرفا عن وعي وانتباه ومهارة، في حين يفزع الناس حين يكاد الفزع يقتلهم فيضطربون في أمورهم) (المصري: ٢٠٨-٢٠٩).

٥- الجمع بين الفريقين على غير ميعاد: حيث هيأ الله تعالى القافلة سببا لإخراج المسلمين لطلبها واستفزاز قريش لحمايتها ونصرتها ليقضي الله أمره وينفذ حكمه. ثم مضت القافلة في سبيلها بعد أن أدت دورها الذي قدره الله لها: ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق .﴾ (الأنفال:٥) ﴿إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا﴾ (الأنفال:٤٢).

ففي الآية الكريمة الأولى يبين الله تعالى أنه هو الذي قدر خروج المسلمين من ديارهم بالحق، لإحقاق الحق وإبطال الباطل.

وفي الآية الكريمة الثانية يصور لنا سبحانه موقع كل فريق كيف قربه الله تعالى من الآخر ونجى القافلة ولم يكن بينهم وبينها إلا مسافة يسيرة؛ فالمسلمون نزول بعدوة الوادي الدنيا (أي القريبة من المدينة) والمشركون بالعدوة القصوى (أي البعيدة من المدينة إلى ناحية مكة) والركب؛ أي العير التي مع أبي سفيان وما فيها من تجارة وأموال لقريش أسفل منكم؛ أي إلى جهة البحر حيث تسير مع ساحل البحر خلف التلال القريبة إلى الغرب من وادي بدر (انظر: ابن كثير: ٢/٣٢٦).

وأخرج ابن جرير عن عمير بن اسحاق قال: أقبل أبو سفيان في الركب من الشام وخرج أبو جهل ليمنعه من رسول الله ﷺ وأصحابه فالتقوا ببدر ولا يشعر هؤلاء حتى التقت السقاة (الطبري:٦/٢٥٧).

وبهذا قدر الله لقاء الجمعين ولايعلم أحد بأحد حتى كانوا على طرفي وادي بدر، ولو تواعدوا لذلك ودبروا، تدبيرهم البشري، زمان اللقاء ومكانه لخالف بعضهم بعضا لإمكان أن يثبط المؤمنين قلتهم وكثرة عدوهم، ويثبط الكافرين ما في قلوبهم من المهابة لرسول الله ﷺ (أنظر الشوكاني:١٩٦٤).

ويبين ابن إسحاق كيف بلغ كل فريق إلى المكان الذي صوره القرآن قبل أن يعلم كل فريق بالآخر ثم كيف هيأ الله الأسباب لأبي سفيان ليعلم بالمسلمين دون أن يعلموا به ليتمكن من الهرب وتبقى ذات الشوكة في المواجهة ليقضي الله أمره. حيث قال: ومضى رسول الله ﷺ على وجهة ذلك حتى إذا كان قريبا من الصفراء بعث بسبس بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء الجهنيين[١٤] يلتمسان الخبر عن أبي سفيان، فانطلقا حتى إذا وردا بدرا فأناخا بعيريهما إلى تل من البطحاء فاستقيا في شن لهما من الماء فسمعا جاريتين تختصمان تقول إحداهما لصاحبتها: اقضيني حقي، وتقول الأخرى إنما تأتي العير غدا أو بعد غد فأقضيك حقك. فخلص بينهما مجدي بن عمرو وقال: صدقت، فسمع بذلك بسبس وعدي فجلسا على بعيريهما حتى أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه الخبر، وأقبل أبو سفيان حين وليا وقد حذر فتقدم أمام عيره وقال لمجدي بن عمرو: هل أحسست على هذا الماء من أحد تذكره؟ فقال: لا والله، إلا أنني رأيت راكبين أناخا إلى هذا التل فاستقيا في شن لهما ثم انطلقا، فجاء أبو سفيان إلى مناخ بعيريهما فأخذ من أبعارهما ففته فإذا فيه النوى، فقال: هذه والله علائف يثرب[١٥]. فرجع إلى أصحابه سريعا فضرب وجه عيره عن الطريق فساحل بها وترك بدرا بيسار وانطلق حتى أسرع.

فلما رأى أنه قد أحرز العير أرسل إلى قريش أن الله قد نجى عيركم وأموالكم فارجعوا (ابن هشام: ٦١٧/١. ابن كثير: ٣٢٦/٢).

أقول: وهذان الرجلان إنما جاءا بخبر العير لا بخبر قريش من قول الجاريتين: إنما تأتي العير غدا أو بعد غد وتصديق مجدي لهما. وهذا يعني أن أخبار الجيش لم تتضح بعد. وأما أبو سفيان فقد أفاد بذكائه من أثر هذه السرية فكانت إنذارا شديدا يعلمه أن جيش المسلمين في مكان قريب استطاع أن يحصر جهته ليمعن في الهرب ويطمئن على نجاة القافلة.

أما رسول الله ﷺ فكان يتوقع لقاء الجيش ولذا كان يتحسس أخباره، قال ابن هشام: (ثم نزل قريبا من بدر فركب هو ورجل من أصحابه- قال ابن هشام: هو أبو بكر الصديق- حتى وقف على شيخ من العرب فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه[١٦] وما بلغه عنهم. فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ : إذا أخبرتنا أخبرناك. قال: أذاك بذاك؟ قال: نعم. قال الشيخ: فإنه بلغني أن محمدا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي به رسول الله ﷺ. وبلغني أن قريشا يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني صدقني فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي فيه قريش،

فلما فرغ من خبره قال فمن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: نحن من ماء ثم انصرف عنه. يقول الشيخ: ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟) (ابن هشام: ٦١٦/١).

قال ابن إسحاق: **(ثم رجع رسول الله ﷺ إلى أصحابه فلما أمسى بعث علي بن أبي** طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون الخبر عليه. فأصابوا رواية لقريش فيها أسلم غلام بني الحجاج وعريض أبو يسار، غلام بني العاص بن سعيد، **فأتوا بهما فسألوهما** ورسول الله ﷺ **قائم يصلي، فقالا:** نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء، فكره القوم خبرهما ورجوا أن يكونا لأبي سفيان فضربوهما، فلما اذلقوهما قالا: نحن لأبي سفيان فتركوهما. **وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتين ثم سلم وقال:** إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما، صدقا والله إنهما لقريش. أخبراني عن قريش قالا: هم والله وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى. **فقال لهما رسول الله ﷺ:** كم القوم؟ قالا كثير. قال ما عدتهم؟ قالا: لاندري. قال: كم ينحرون كل يوم؟ قالا: يوما تسعا ويوما عشرا، فقال رسول الله ﷺ: **القوم ما بين التسعمائة والألف. ثم قال لهما فمن فيهم من أشراف قريش؟ فعدا له عددا** من أشرافهم. **فأقبل رسول الله ﷺ** على الناس **فقال: هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها)** (ابن هشام: ٦١٧).

وهذه الحملات الاستطلاعية تدل على أن خبر الجيش لم يتيقن للمسلمين إلا وهم على مقربة شديدة من اللقاء، وأنهم أصبحوا وجها لوجه أمام الجيش، ولذا أصبح أمر القافلة مفروغا منه ولن يظفروا بغير ذات الشوكة، وهذا تدبير الله ليلتقي الجيشان على أمر قد قدر. ﴿ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة﴾ (الأنفال:٤٢).

٦- إراءتهم للنبي ﷺ **في منامه قليلا. قال تعالى:** ﴿إذا يريكهم الله في منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور﴾ (الأنفال:٤٣).

فهذه الآية تبين معونة إلهية أيد الله تعالى بها المسلمين بتهيئة نفسية عصمهم فيها من الفشل والتنازع وقوى عزيمتهم على الجرأة والمواجهة. قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وإذ يريكهم الله في منامك قليلا﴾ قال: أراه الله إياهم في منامه قليلا فأخبر النبي ﷺ بذلك وكان تثبيتا لهم (الطبري: ٢٥٦/٦. السيوطي: ٧٤/٤).

فكانت هذه الآراء علاجا نفسيا للمسلمين ليسلم لهم رأيهم من التنازع ونفوسهم من الجبن والضعف عن التقاء الصفوف. والمحافظة على القوة المعنوية وزيادتها له دور فعال في المعركة كما يعد من أسباب الربط على القلوب.

٧- وتتميما لهذه النعمة أرى الله تعالى كلا من الفريقين الآخر أقل مما هو عليه، فالمسلمون رأوا المشركين قليلا حتى قال قائلهم أتراهم مائة (الطبري: ٢٥٩/٦، ابن كثير: ٣٢٨/٢). وهذا له أثره النفسي مما يزيد المؤمنين جرأة وشجاعة وتسقط هيبة الكثرة من قلوبهم. والمشركون رأوا المسلمين قلة فاستهانوا بهم ولم يأخذوا الاهتمام الكامل لهم (الطبري: ٢٥٩/٦) مما كان له أثره السلبي على المشركين؛ لأن الاستهانة بالقوة المقابلة توقع الجيش في مفاجآت عسيرة أثناء المعركة... قال تعالى: ﴿وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقضي الله امرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور﴾ (الأنفال:٤٤).

وفي سورة آل عمران يصف الله تعالى الموقف بقوله: ﴿قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين﴾ (آل عمران:١٣).

فإن كان المؤمنون وهم ثلاثمائة وأربعة عشر رجلا يرون الكافرين مثليهم أي ستمائة وستة وعشرين رجلا فهذا لا يتعارض مع قوله تعالى: ﴿وإذ يريكموهم إذا التقيتم في أعينكم قليلا﴾؛ لأن عدد الكافرين على الحقيقة قريب من الألف؛ فرؤيتهم دون العدد تقليل لهم (انظر: الماوردي: ٣٧٤/١). وهذا العدد يكلف المؤمنين بمواجهتهم شرعا حتى ولو كانوا في حالة ضعف لقوله: ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين﴾. (الأنفال:٦٦) (أبو السعود:١٣/٢).

وإن بلغ التقليل أن يرى المؤمنون الكافرين مائة- كما مر- فوجه الجمع أن يحمل على تعدد الأحوال (ابن كثير: ٣٥٨/١).

أما إن كان الكافرون هم الذين رأوا المؤمنين مثليهم، فالضمير في مثليهم يجوز أن يكون للرائين او المرئيين.

فإن كان للرائين فإن المشركين رأوا المؤمنين قريبا من ألفين، وإن كان للمرئيين فإنهم رأوا المؤمنين ستمائة وبضعا وعشرين، وكلا الوجهين يتعارض مع ظاهر قوله تعالى: ﴿ويقللكم

في أعينهم﴾ فوجه الجمع بين الأمرين أن التقليل حصل عند أول الرؤية أو عند اللقاء قبل نشوب الحرب حتى يجرؤوا عليهم ولا يهربوا، ولما نشبت الحرب تغيرت الحال فرأوهم أكثر مما هم عليه بتكثير سواد الملائكة لهم ليلقي الرعب في قلوبهم ويقع لهم الفشل فينجز الله وعده بنصر المؤمنين. (أنظر: أبو السعود: ١٣/٢).

٨- إلقاء الرعب في قلوب المشركين: قال الله تعالى: ﴿سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ (الأنفال:١٢).

فهذه الآية الكريمة تبين أن الله تعالى هيأ للمسلمين سببا عظيما من أسباب الظفر مما يخفى على الناس، وتظهر آثاره عند اللقاء، وذلك أنه تولى بنفسه إلقاء الرعب في قلوب المشركين، وتلك من اعظم المؤيدات التي أيد الله بها المؤمنين من حيث لا يحتسبون، ومن أشد الخذلان الذي خذل به المشركين حيث يؤتون من داخل نفوسهم فيجبنوا عند شدة الحاجة إلى الشجاعة وتخونهم نفوسهم في اللحظات الحاسمة التي يعولون عليها في استثمار قوتهم وشجاعتهم واستعداداتهم.

والرعب: (انزعاج النفس بتوقع المكروه، وأصله الانقطاع من امتلاء الخوف) (الراغب:١٩٩٧/٣٥٦).

وفرق القرآن بين إلقاء الرعب وقذف الرعب حيث استعمل كل لفظ في موطنه الأخص به حيث يحتاج القذف إلى شدة وقوة، فاستعمل في سورة الحشر في الحديث عن اليهود المتحصنين داخل الحصون المنيعة التي ظنوها مانعتهم من الله، أما مع المشركين فاكتفى بإلقاء الرعب حيث هم في العراء بلا حصون. (انظر: عباس: الإعجاز: ١٩٩١/١٨٨).

القرآن يكشف عن الفوارق الجوهرية بين فئة الإيمان وفئة الكفر:-

يلفت القرآن الكريم إلى الفوارق الجوهرية بين الفئة المؤمنة والفئة الكافرة اللتين تشكلان طرفي الصراع في هذه الغزوة من جوانب متعددة تشمل الجوانب الفكرية والنفسية والعسكرية والاقتصادية وغيرها مما له أثر في سير المعركة ونتائجها، وهذه أمور لابد من أخذها بعين الاعتبار عند دراسة غزوة لها قيمتها ووزنها التاريخي في حياة البشرية كما تؤخذ بما تستحق من الاهتمام عندما تفكر الأمة تفكيرا جادا في إعادة بناء شخصيتها وقوتها من جديد، فتكون نموذجا يحتذى في الإعداد والاستعداد لأمة تبحث عن النصر وتنشد أسبابه.

ونكتفي في هذا الحديث بالفوارق الفكرية:-

أولا: في العقيدة:

وهي الأساس الذي يقوم عليه الصراع والخلاف بين أي فئتين متصارعتين، وقد جعلها القرآن طليعة الفوارق ذات الاعتبار في ميزان الله: ﴿قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل اله وأخرى كافرة﴾ (آل عمران:١٣).

فالفئة الأولى تقاتل في سبيل الله والأخرى كافرة، ونجد القرآن يقابل الفئة الكافرة بفئة تقاتل في سبيل الله. فرب قائل يقول: لم يقل فئة مؤمنة وأخرى كافرة؟ أقول: لأن القتال في سبيل الله بهذا الوصف الذي تشوبه شائبة لا يمكن أن يكون إلا من فئة مؤمنة، ذلك أن القتال في سبيل الله لازم من لوازم الإيمان لا يصدر إلا عنه، كما أن الفئة الكافرة لا يمكن أن تقاتل في سبيل الله ولهذا قال سبحانه: ﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا﴾ (النساء: ٧٦). وهذا يعني أن الفئة المؤمنة التي تقاتل في سبيل الله تستمد مشروعية قتالها وعدالته من الله، وتسعى إلى إحقاق الحق وإبطال الباطل وجعل كلمة الله هي العليا.

وهذه هي الميزة الكبرى التي تدور معها المعية الآلهية عناية ونصرة وموالاة وتدبيرا للفئة المؤمنة وعداوة وخذلانا ومكرا للفئة الكافرة.

قال الله تعالى: ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ (محمد:٧). وقال : ﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم﴾ (محمد:١١). وقال: ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ (البقرة:٢٥٧). وقال: ﴿إن شر الدواب عند الله الذين كفروا﴾ (الأنفال:٥٥).

ثانيا: في الاهداف والغايات (انظر: عرموش: ٥٢/١٩٨٩م):-

بناء على اختلاف العقيدة يختلف الهدف والغاية؛ فالمؤمنون بالله يقاتلون من أجل إعلاء كلمة الله وجعل السيادة في الأرض لحكم الله وشرعه، وليس لأنفسهم إلا الفوز برضوان الله والجنة: ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين﴾ (القصص:٨٣).

أما الكافرون فإنما يريدون الصد عن سبيل الله ويريدون لأنفسهم علوا واستكبارا في الأرض. ولا تخرج غاياتهم عن تحصيل المطالب الدنيوية الساقطة من الرياء والسمعة والمكاسب المادية الضئيلة. ﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت﴾ (النساء:٧٦).

والمؤمنون في بدر إنما خرجوا أول الأمر لطلب عير قريش في أسلوب بعيد المدى لإضعاف قريش اقتصاديا، ولكنهم لما علموا أنهم سيواجهون حربا كان لاستقرار العقيدة في نفوسهم أثر بالغ في استجابتهم لأغراض الإيمان وأهدافه فأجابوا بحزم وعزم، والله لانقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون.

وأجاب آخر: يا رسول الله لقد آمنا بك وصدقناك وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا فامض لما آراك الله...ولولا طلب رضوان الله والجنة لما هان عليهم أن يسيروا إلى حرب غير متكافئة كأنهم يساقون إلى الموت وهم ينظرون.

والمظهر الذي خرج به المشركون يوم بدر ينم عن أهدافهم وغاياتهم وما يطلبون وتصبو إليه أنفسهم من البطر والرياء والصد عن سبيل الله، قال الله تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط﴾ (الأنفال:٤٧).

فهذا أبو جهل عندما جاءه الخبر من أبي سفيان بنجاة العير يشار عليه بالعودة طالما العير قد نجت فيقول: والله لا نرجع حتى نرد بدرا- وكان بدر موسما من مواسم العرب يجتمع لهم به سوق كل عام- فنقيم عليه ثلاثا فننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا بعدها أبدا (ابن هشام: ٦١٩/١).

وهذه الأهداف لم تكن مقنعة للعقلاء من القوم الذين لم تنطمس بصائرهم بالعصبية والغطرسة في عدالة هذه الحرب، ولذا لم يرق لفريق منهم أن يتابع سيره أو يقاتل من أجل هذه الغايات التي لا تستحق هذا البذل بعد أن نجت القافلة؛ فهؤلاء بنو زهرة يعودون بعد مشورة الأخنس بن شريق حين قال: يا بني زهرة قد نجى الله لكم أموالكم وخلص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل، وإنما نفرتم لتمنعوه وماله فاجعلوا لي جبنها وارجعوا فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير منفعة لا ما يقول هذا (يعني أبا جهل) (ابن هشام: ٦١٩/١).

ثالثا: وحدة الكلمة واتفاق الرأي عند المسلمين وتشتت الكلمة واختلاف الرأي عند المشركين:-

لقد حزم المؤمنون رأيهم بعد المشورة التي أجراها النبي ﷺ على مواجهة القوم مهما كانت النتائج، ولم يصدر منهم أي تردد عن خوض المعركة بعدها حتى لو استعرض بهم البحر أو جالد دون برك الغماد وقد جعل القرآن وحدة الكلمة واتفاق الرأي ونبذ الخلاف من أعظم أسباب القوة المعنوية التي ترهب العدو. قال تعالى: ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾ (الأنفال:٤٦).

أما المشركون فقد تعددت آراؤهم واختلفت كلمتهم وظهر منهم التردد واختلاف الرأي في عدة مواطن منها: أنهم لما أجمعوا المسير ذكروا ما بينهم وبين بني بكر بن عبد مناة من الحرب فقالوا: إنا نخشى أن يأتونا من خلفنا فكاد ذلك يثنيهم، فتبدى لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي فقال لهم: أنا جار لكم من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهون. فخرجوا سراعا (ابن هشام: ١٩١/٢. ط دار الخير). ولما بلغهم نجاة القافلة اختلفت آراؤهم حتى رجع بنو زهرة وانسلخوا عن الجيش لعدم قناعتهم بجدوى الحرب (ابن هشام: ٦١٩/١).

ولما وصلوا ساحة المواجهة ارسلوا عمير بن وهب الجمحي ليحزر لهم أصحاب محمد ﷺ فاستجال بفرسه حول المعسكر ثم رجع إليهم فقال: ثلاثمائة رجل يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا. ولكن أمهلوني حتى أنظر القوم: كمين أو مدد؟ قال فضرب في الوادي حتى أبعد فلم ير شيئا فرجع إليهم فقال: ما وجدت شيئا ولكن قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا: نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلا منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك؟ فروا رأيكم (ابن هشام: ١٩٩/٢، ط دار الخير).

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس فأتى عتبة بن ربيعة فقال: يا أبا الوليد! إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها، هل ذلك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر؟ فقال: وما ذاك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي[١٧]. قال: قد فعلت أنت علي بذلك، إنما هو حليفي فعلي عقله وما أصيب من ماله فأت ابن الحنظلية- يعني أبا جهل- فإني لا أخشى أن يشجر أمر الناس غيره. ثم قام عتبة بن ربيعة خطيبا فقال: يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا، والله لئن أصبتموه لايزال الرجل ينظر في وجه يكره النظر إليه قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته، فارجعوا وخلوا

بين محمد وبين سائر العرب فإن أصابوه فذلك الذي أردتم، وإن كان غير ألقاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون.

فانطلق حكيم إلى أبي جهل وقال: إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا...فقال: انتفخ والله سحره حين رأى محمداً وأصحابه، كلا، والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعتبة ما قال، ولكنه رأى محمداً وأصحابه أكلة جزور وفيهم ابنه فقد تخوفكم عليه، ثم بعث إلى عامر بن الحضرمي فقال: هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس وقد رأيت ثأرك بعينك فقم فانشد خفرتك ومقتل أخيك.

فقام عامر بن الحضرمي فاكتشف ثم صرخ: واعمراه..واعمراه، فحميت الحرب وحقب الناس واستوسقوا على ما هم عليه من الشر، وأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة (ابن هشام: ١/٦٢٢).

وهذا إنما يدل على اختلاف زعماء قريش في قرار خوض المعركة وعدم قناعتهم بجدواها وأن توقعات نتائجها سلبية على قريش حتى على افتراض كسب المعركة. ولم يستفزهم إليها إلا الحمية التي قاد حملتها أبو جهل. وهذا من تدبير الله وقدره الذي أراد أن لا يفلتوا من القبضة بعد ان وقعوا فيها.

رابعاً: المعاصي والطاعات:-

إن من أهم عناصر القوة ما يتميز به الصف من القيم والأخلاق والانضباط بموازين الخير وتجنب الشر. ولقد كانت الفئة المؤمنة هي صاحبة هذا الميدان والداعية إليه حيث هي من صميم رسالة الإسلام ووظيفة النبي ﷺ الذي كان يزكيهم ويطهر نفوسهم، فيسارعون إلى الاستجابة لأمره، كيف لا وهم يسعون إلى إعلاء كلمة الله ولا بد لمن يجاهد لإعلاء كلمة الله أن يعليها في نفسه وواقعة أولاً. ولقد جاءت الآيات القرآنية تؤكد ما يجب عليهم الامتثال به من مبادئ الخير، قال تعالى: ﴿يسئلونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾ (الأنفال: ١-٣). وقال سبحانه: ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ ...(الأنفال: ٢٤). وقال:﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون﴾ ...(الأنفال: ٢٧)

أما وصف المشركين فكانوا كما وصفهم الله محذراً المؤمنين أن يكونوا مثلـــهم بقولـــه: ﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا مـن ديارهم بطـراً ورئاء النـاس ويصـدون عـن سـبيل الله والله بمـا يعملـون محيـط﴾ ... (الأنفال:٤٧).

فنفوسهم مشبعة بالكبر والتعالي غطرسة وعصبية، وأعمالهم للرياء والمفاخرة والمباهـــاة لا لمعنى جوهري أو هدف بناء، وسعيهم إنما هو للصد عن سبيل الله وإظـــهار البـــاطل علـــى الحق. ويظهر ذلك من خلال عزم أبي جهل ألا يرجعوا حتى يصلوا ماء بدر فينحروا الجـــزور، ويشربوا الخمور، وتغني لهم القينات، وتسمع بهم العرب (انظر الطبري: ٢٦٢/٦، ابن هشـام: ١٩٦/٢). ومما قالوه في هذا الموطن حين أشير عليهم بالعودة: لا والله حتى يتحدث أهل الحجاز بمســـيرتنا وعددنا (الطبري: ٢٦٣/٦). وقد وصفهم النبي ﷺ بقوله: **(اللهم إن قريشاً أقبلت بفخرها وخيلائها لتحادك ورسولك)** (الطبري: ٢٦٣/٦).

يفعلون ذلك انتفاخاً بالجاهلية في أبعد آمادها من الكفر بالله والصد عن سبيله والتفـــاخر والتعالي بإظهار المعاصي والفواحش والتباهي بها. وهم في غفلة عن أنهم يحادون الله ورســـوله ويظنون أنهم أقرب إلى الحق، بل ويدعون أنهم أهل الحق.

فهذا أبو جهل يستفتح[١٨] على نفسه حين التقى الناس فيقول: اللهم اقطعنا للرحم وآتانـــا بما لا يعرف فأحنه[١٩]،الغداة [٢٠]. وفيه نزلت الآيـــة الكريمـــة: ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ (الأنفال:١٩).

وعن السدى أن المشركين حين خرجوا من مكة إلـــى بـــدر أخـــذوا باســـتار الكعبـــة فاستنصروا بالله، وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين وأكرم الفئتين وخير القبيلتين فكـــان الجـــواب: (فقد جاءكم الفتح)؛ أي أجبت طلبكم وحكمت بالفصل فنصرت محمداً (ابن كثير: ٣٠٩/٢).

خامساً: العزم والتصميم:-

وثمة فارق كبير له أثره في مجريات الحرب وسير أحداثها وهو مدى العزم والإصـــرار على المضي في المعركة إلى نهايتها وتحمل تبعاتها ومشاقها ومدى ضبط النفس والقـــدرة علـــى الصبر في تلقي شدائدها.

ArabLawInfo (www.arablawinfo.com)
Tel: 00962 (6) 55 20 783 - Fax: 00962 (6) 55 20 784 - P.O.Box: 8734 Amman 11121 Jordan
Um-Othayna/6th Circle- King Faisal Street - Building No. (38)

والعزم والصبر له ارتباط وثيق بالعقيدة التي ينبثق عنها الهدف والثمرة المرجوة من القتال. وبمقدار تفاعل العقيدة مع النفس تكون قناعة الجندي ويقينه بالهدف والاصرار على تحقيقه وتحمل الكثير من أجله.

فالمؤمنون بالله ينبعثون من عقيدة راسخة، ويرفعون راية الحق الذي لا شك فيه، ويرجون قطف ثمرة إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة، ويهدفون إلى أن تكون كلمة الله هي العليا وكلما كان تفاعل هذه المفاهيم مع النفس أكثر كان العزم والإصرار والثبات أقوى، ولهذا أعطى الصحابة رسول الله ﷺ العهد والوعد والميثاق الأكيد على الثبات والصبر، ولو كان فعلى ما لايطاق من استعراض البحر أو المجالدة إلى برك الغماد.

وجاء التوجيه القرآني الذي له أكبر الأثر في نفس المؤمن ليأمر بالثبات ويحذر من الفرار فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا﴾ (الأنفال:٤٥). وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذ لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ (الأنفال:١٥-١٦).

والمؤمن صاحب القلب الموصول بالله الذي يقاتل لإعلاء كلمة الله لا ينظر إلا إلى إحدى الحسنيين: إما نصراً يعلي به الحق ويظهر به الدين، وإما شهادة تنقله من أرض الجلاد والجهاد إلى جانب النعيم، فانظر إلى كلمات رسول الله وفعلها في النفوس حين حرض المؤمنين على القتال قائلاً: (والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقاتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة)، قال عمير بن الحمام وفي يده تمرات يأكلهن: بخ بخ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟ ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل. (ابن هشام: ٦٢٧/١).

أما قريش فقد ترددت في دخول المعركة وتعالت بينهم أصوات وآراء تنادي بالعودة عن حرب لا غرض لهم فيها. وكان ذلك لأسباب عدة منها: تخوفهم مما بينهم وبين بكر الذي كاد أن يثنيهم عن الخروج، ومنها أنهم لما علموا بنجاة القافلة قالوا لا حاجة لنا بالقتال. ومنها تحسبهم من الآثار المتوقعة إذا أحاطوا بالمسلمين القلة فقتلوهم، وآثارها النفسية؛ إذ كيف ينظر أحدهم إلى قاتل أخيه وابن عمه أو ابن عمه أو ابن خاله، أو توقع كيفية قتال قوم لا منعة لهم إلا سيوفهم، كما قال عمير بن وهب، ومنها قولتهم: لئن كنا نقاتل الناس فما بنا من ضعف عنهم، ولئن كنا نقاتل الله- كما يزعم محمد- فما لأحد بالله طاقة (انظر: ابن هشام: ٦٢١/١، ابن كثير، البداية: ٢٦٨/٣).

فأين العزم والتصميم والثبات عند هؤلاء؟ وكيف يثبتون وهم يرون أنهم يحاربون الله، وهو الذي القى في قلوبهم الرعب، وهل من مقام لمن ملئ قلبه رعباً أن يواجه؟

سادساً: وإذا توجوا هذا العزم والثبات بالصبر والمصابرة نالوا معية الله وولايته وهو مولى الذين آمنوا وأنى تكون هذه للكافرين.

وبهذا يكون للمؤمنين ميزة عظيمة لا يمكن أن تكون للكافرين قال تعالى: ﴿واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ (الأنفال:٤٦). أي اصبروا فإني معكم (الطبري:٦/٢٦١). وقال: ﴿ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لايرجون وكان الله عليماً حكيما﴾ (النساء:١٠٤). وقال: ﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم﴾ (محمد:١١).

ويترتب على هذه الميزة أن المؤمنين هم الذين اهتدوا إلى مصدر النصر وواهبة فتوجهوا إليه مستغيثين طالبين المدد والعون والنصرة: ﴿وما النصر الا من عند الله إن الله عزيز حكيم﴾ (الأنفال:١٠). وكان هذا التوجه بعد أن أدوا ما كلفوا به شرعاً من الإعداد والاستعداد والأخذ بالأسباب؛ فهذا رسول الله ﷺ يرسم منهاج القدوة لأمته: يهيء النفوس، ويرص الصفوف، ويعقد على المنازلة، ويأخذ بالأسباب المتاحة المقدورة للبشر، ثم يتوجه بعد ذلك فيما لا يملكه البشر إلى الله جل وعلا ضارعاً إليه بالنصر.

قال ابن اسحاق: ثم عدل رسول الله ﷺ الصفوف ورجع إلى العريش فدخله ومعه أبو بكر الصديق ليس معه فيه غيره ورسول الله ﷺ يناشد ربه ما وعده من النصر، ويقول فيما يقول: (اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لاتعبد) وأبو بكر يقول يا نبي الله بعض مناشدك ربك فإن الله منجز لك ما وعدك. وقد خفق رسول الله ﷺ خفقة وهو في العريش ثم انتبه فقال: ابشر يا أبا بكر أتاك نصر الله هذا جبريل آخذاً بعنان فرسه يقوده على ثنايا النقع (ابن هشام: ١/٦٢٦).

وأخرج مسلم والطبري عن عمر رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر ونظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وعدتهم ونظر إلى أصحابه نيفا على ثلاثمائة فاستقبل القبلة فجعل يدعو يقول: (اللهم انجز لي ما وعدتني اللهم أن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لاتعبد في الأرض فلم يزل كذلك حتى سقط رداؤه وأخذه أبو بكر رضي الله عنه فوضع رداءه عليه ثم التزمه من

وراءه ثم قال: كفاك يا نبي الله- بأبي وأمي- مناشدتك ربك فإنه منجز لك ما وعدك فـأنزل الله: ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾ زاد مسلم (فأمده الله بالملائكة)[٢١].

أما قريش فلم يكن لها نصيب من ولاية الله ومعيته، فتولاهم الشيطان وغرهم من أنفسهم وزيـن لـهم البـاطل ﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم﴾ (الأنفال:٤٨). فركنت قريش إلى قوتها وعددها وهيبتها وأقبلت إلى الحرب بكـل غـرور وفخـر وخيلاء وهم لايشكون في أن يكون النصر حليفهم وأمثلهم طريقة من يحسب حساب كثرة الخسائر حتى يتحقق النصر.

وحزم أبو جهل أمر قريش على منازلة المسلمين وقد نظـر إليـهم نظـرة اسـتخفاف واستهانة وهو يراهم أكلة جزور ليس بينه وبين إبادتهم إلا نشوب الحرب.

ولما اشتد الأمر لم يكن من الشيطان إلا أن خذل أولياءه وذلك حين رأى الملائكة. "قـال ابن عباس رضي الله عنه: جاء إبليس يوم بدر في جند من الشيطان معه، رأيته في صورة رجـل من بني مدلج والشيطان في صورة سراقة بن مالك ابن جعشم فقال الشيطان للمشركين: (لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم) (الأنفال:٤٨)... وأقبل جبريل إلى إبليس فلما رآه، وكانت يـده في يد رجل من المشركين، انتزع إبليس يده فولى مدبراً هو وشيعته، فقال الرجل: يـا سـراقة، تزعم أنك لنا جار؟ قال: (إني أرى ما لاترون إني أخاف الله والله شديد العقـاب) (الأنفـال:٤٨) وذلك حين رأى الملائكة. (الطبري:٦/٢٦٤).

نشوب المعركة وما نزل فيها من آيات:-

أوجز الحديث عن مجريات المعركة لأدع التفصيل عنها وخططها وتحليلها إلـى بحـث آخر يتعلق بالجانب العسكري والاقتصادي لغزوة بدر.

أما ابتداء نشوب المعركة فكان بالمبارزة التي خرج في طلبها عتبة وشيبة والوليد بعـد أن أثار أبو جهل حفيظتهم عندما عير عتبة بالجبن فأراد عتبة أن يثبت أن مشورته بعدم القتال لـم يكن جبناً ولكنه رأي يرى فيه مصلحة قريش، أما إذا حم القتال فسيعلم مصفر استه، مـن انتفـخ سحره؛ أنا ام هو.

فلما فصلوا من الصف دعوا إلى المبارزة فخرج لهم فتية من الأنصار ثلاثة فقالوا: مـن أنتم؟ قالوا رهط من الأنصار فقالوا: أكفاء كرام، ولكن اخرجوا لنا أكفاءنا من بني عمنا، ونـادى مناديهم يا محمد، أخرج لنا أكفاءنا من قومنا. فقال النبي ﷺ : قم يا عبيدة بن الحارث وقـم يـا

حمزة وقم يا علي. فلما دنوا منهم قالوا: من أنتم؟ لأنهم كانوا ملبسين لا يعرفون من السلاح، فقال عبيدة: عبيدة، وقال حمزة: حمزة، وقال علي: علي، قالوا: نعم أكفاء كرام فبارز عبيدة عتبة، وبارز حمزة شيبة، وبارز علي الوليد.

أما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله، وأما علي فلم يمهل الوليد فقتله واختلف عبيدة وعتبة بينهما بضربتين كلاهما أثبت صاحبه وكر حمزة وعلي بأسيافهما على عتبة فذفقا عليه وحملا صاحبهما فحازاه إلى أصحابه رضي الله عنه (ابن هشام: ٦٢٥/١، ابن كثير، السيرة: ٤١٣/٢).

ويقسم أبو ذر رضي الله عنه أنه فيهم نزل قوله تعالى: (هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ...)[٢٢].

وعن علي رضي الله عنه، قال: "أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن عزوجل في الخصومة يوم القيامة". قال قيس: وفيهم نزلت: (هذان خصمان اختصموا في ربهم، قال: هم الذين بارزوا يوم بدر: علي، وحمزة، وعبيدة، وشيبة، وعتبة، والوليد) (البخاري، التفسير، باب سورة الحج: ١٢٣/٦).

ثم كانت المنازلة بعد هذه المبارزة، ونفذ المسلمون فيها الخطة التي رسمها لهم رسول الله ﷺ.

ثم إن رسول الله ﷺ أخذ حفنة من الحصباء فاستقبل قريشاً بها ثم قال: شاهت الوجوه، ثم نفحهم بها وأمر أصحابه فقال شدوا، وكان ذلك حين خرج من العريش بعد دعائه وتضرعه واستكانته إلى ربه فرماهم بها، وقال: شاهت الوجوه ثم أمر أصحابه أن يصدقوا الحملة إثرها ففعلوا، فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين فلم يبق أحد مهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله، ولهذا قال تعالى: (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) (الأنفال: ١٧). أي هو الذي بلغ ذلك اليهم وكبتهم بها لا أنت. (ابن كثير: ٢٠٧/٢، الطبري: ١٣٦/٩).

وحمل المسلمون على المشركين حملتهم التي أيدهم الله بها فكانت الدائرة على المشركين وقتل الله من قتل من صناديد قريش وأسر من أسر من أشرافهم، وفي ذلك يقول تعالى: (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) (الأنفال:١٧). أي ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم بل هو الذي أظفركم عليهم. (ابن كثير ٣٧/٢).

ولقد كانت هذه الهزيمة التي حلت بالمشركين هي الوعد الذي وعده الله المسلمين وهم في مكة بقوله سبحانه وتعالى: (سيهزم الجمع ويولون الدبر بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر) (القمر: ٤٥-٤٦).

أخرج البخاري عن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال وهو في قبة يوم بدر: (اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن تشأ لا تعبد بعد اليوم. فاخذ أبو بكر بيده فقال حسبك يا رسول الله ألححت على ربك وهو يثب في الدرع فخرج وهو يقول: "سيهزم الجمع ويولون الدبر بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر" (البخاري ك: التفسير، باب اقتربت الساعة: ٦/١٧٩).

وأخرج عن عائشة رضي الله عنها قالت: لقد أنزل الله على محمد ﷺ بمكة وإني لجارية ألعب: (بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر) (البخاري: ٦/١٧٩).

قال ابن اسحاق: فلما وضع القوم أيديهم ياسرون ورسول الله ﷺ في العريش وسعد بن معاذ قائم على باب العريش الذي فيه رسول الله ﷺ متوشح السيف في نفر من الأنصار يحرسون رسول الله ﷺ يخافون عليه كرة العدو، ورأى رسول الله ﷺ -فيما ذكر لي- في وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس، فقال له رسول الله ﷺ: والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم؟ قال: أجل والله يا رسول الله كانت أول وقعة أوقعها الله في أهل الشرك فكان الإثخان في القتل بأهل الشرك أحب إلي من استبقاء الرجال. ٠ابن هشام: ١/٦٢٨).

نتائج المعركة وآثارها:-

أولا: النتائج المباشرة للمعركة:-

١. كانت هذه المعركة فرقانا بين الحق والباطل كما سماها الله تعالى كذلك كما قال: (وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير) (الأنفال: ٤١). فلقد كانت بدر فرقانا بين الحق والباطل أحق الله به الحق وأبطل الباطل، قدر الله لهذا الفرقان تدبيره فصرف غير ذات الشوكة ليظفر المؤمنون بذات الشوكة: (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون). (الأنفال:٧-٨).

وذلك لأن الحق لا يحق والباطل لا يبطل إلا بيوم فرقان يدفع الله به الناس بعضهم ببعض (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) (البقرة ٢٥١). ولا تكون هذه المفاصلة إلا بإحداث حرب. يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله: "أراد الله أن تكون معركة وقتال وقتل وأسر ولا تكون قافلة وغنيمة مريحة، وقال لهم الله سبحانه إنه صنع هذا (ليحق الحق ويبطل الباطل) كانت هذه

إشارة لتقرير حقيقة كبيرة: أن الحق لايحق وأن الباطل لا يبطل في المجتمع الإنساني بمجرد البيان النظري للحق والباطل ولا بمجرد الاعتقاد النظري بأن هذا حق وهذا باطل وأن الحق لا يحق ولايوجد في واقع الناس وأن الباطل لا يبطل ولا يذهب من دنيا الناس إلا بأن يتحطم سلطان الباطل ويعلو سلطان الحق وذلك لا يتم إلا بان يغلب جند الحق ويظهروا ويهزم جند الباطل ويندحروا؛ فهذا الدين منهج حركي واقعي لا مجرد نظرية للمعرفة والجدل أو لمجرد الاعتقاد السلبي' (قطب: ١٥٢٣/٣، ط الشروق).

ولقد كانت فرقانا كبيرا في تاريخ البشرية كلها فقد جعلها الله سببا لتمكين دعوة الإيمان في الأرض كما أشارت إلى ذلك كلمات رسول الله ﷺ في تضرعه إلى الله تعالى: (اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لاتعبد)[٢٣].

كما كانت فرقانا في تاريخ الحركة الإسلامية بين عهدين: عهد الصبر والمصابرة والتجمع والانتظار، وعهد القوة والحركة والمبادأة والاندفاع وتبدل الحال من الذل إلى العز. لقد تغير الشيء الكثير في واقع المسلمين وكانت واقعة بدر بابا تفجرت منه ينابيع الحركة والنشاط والهمة العالية للمسلمين في نفوسهم ودعوتهم وأسلوب مواجهاتهم للأشخاص والجماعات والأحداث.

٢. حلت الهزيمة الساحقة بقريش وقواتها وهيبتها وولت الأدبار: (سيهزم الجمع ويولون الدبر) (القمر:٤٥). ولقد كانت هذه الهزيمة مفاجأة ذات مرارة ممضة على قريش، أذهلتها بما لم تكن تتوقع: فانقطعت آمالهم، وتبددت أحلامهم، وجاءهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون (ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين) (آل عمران: ١٢٧).

٣. ولقد كان من أبرز نتائجها القضاء على صناديد الشرك الذين كان لهم الدور الأكبر في حرب الإسلام والصد عن سبيل الله لقد قضى الله قتل السبعين المشهورين من قريش بشدة كفرهم؛ فهم شر الدواب الذين لا يرجى إسلامهم ولا خير فيهم: (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون' (الأنفال: ٢٢-٢٣).

وهم الذين دعا عليهم النبي ﷺ حين كان يشتد عليه الايذاء في مكة[٢٤]. لقد انتقاهم الله تعالى انتقاء ليعذبهم بأيدي المؤمنين ويشفي صدورهم بعدما ذاقوا منهم الأمرين.

قال ابن اسحاق: فلما نزل الناس (أي أخذوا مواقعهم قبل المعركة) أقبل نفر من قريش حتى وردوا حوض رسول الله ﷺ فيهم حكيم بن حزام فقال رسول الله ﷺ: دعوهم فما شرب

منه رجل يومئذ إلا ما كان من حكيم بن حزام فإنه لم يقتل ثم أسلم بعد ذلك فحسن إسلامه فكان إذا اجتهد في يمينه قال لا والذي نجاني من يوم بدر (ابن هشام: ١٩٨/٢-١٩٩، دار الخير، ١٩٧٨).

٤. وقع سبعون من أشراف المشركين وسادتهم في الأسر بيد المسلمين، جاء في الصحيح من حديث عمر رضي الله عنه يرويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين.[٢٥].

واستشار النبي ﷺ أصحابه فيما يصنع بالأسارى: فمنهم من أشار بقتلهم، ومنهم من أشار بمفاداتهم، فمال النبي ﷺ إلى مفاداتهم فقبل منهم الفداء. فأنزل الله تعالى في ذلك معاتباً (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) (الأنفال: ٦٧-٦٨)[٢٦].

ويقف الدكتور السباعي رحمه الله عند الحكمة التي توخاها ﷺ من قبول فداء الأسرى وعدم قتلهم أنه كان ﷺ حريصاً على هداية أعدائه وأراد أن يفسح لهم المجال لعل الله أن يلقي في قلوبهم الهداية. (السباعي: ١٩٧٢).

أقول: وقد تحققت الهداية لكثير منهم، ولعل هذا أدخل في معنى قوله تعالى: (ولو كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) (الأنفال: ٦٨) فقد قضى الله تعالى في سابق علمه أنهم سيسلمون.

ولكن القرآن ينبه إلى أمر هام في حياة المسلمين ليتعاملوا مع الواقع على ما هو عليه ظاهر الحال، فإن الغيب أمره إلى الله والحكمة في هذا الموقف تقتضي ايقاع أكبر قدر ممكن من الخسائر في العدو حتى لا تقوم له قائمة بعدها[٢٧].

ثم يشير السباعي رحمه الله إلى حكمة أخرى. وهي التوفيق بين ظاهر العباس وأنه مع المشركين وبين حقيقة أمره وأنه مع المسلمين، فلو قتلهم للزم عن ظاهر الشريعة قتله وكيف يقتله وقد يكون مسلماً سراً. وله سوابق مع المسلمين.(انظر السباعي:١٢٢).

ومما يؤكد حفظ النبي ﷺ لسابقة العباس وأن له دوراً في نصرة المسلمين أنه أوصى بعدم قتله كما أنه لما وقع في الأسر أسره ملك كريم سلمه لأحد الأنصار[٢٨].

وعامله النبي ﷺ على الظاهر فأخذ منه فداء نفسه وفداء ابن أخيه عقيل بن ابي طالب ووعده خيراً في الدنيا ومغفرة في الآخرة، ففيه نزل قوله تعالى: (يا أيها النبي قل لمن في أيديكم

من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيـــم) (الأنفال:٧٠)[٢٩].

وكان العباس رضي الله عنه يقول: فيّ نزلت هذه الآية. كان العباس أســـر يــوم بــدر فافتدى نفسه بأربعين إوقية من ذهب، فقال العباس حين نزلت هذه الآية: لقد أعطاني الله خصلتيـن ما أحب أن لي بهما الدنيا: أني أسرت يوم بدر ففديت نفسي بأربعين إوقية فآتاني أربعين عبــــداً، وأنا أرجو المغفرة التي وعدنا الله.(الطبري: ٢٩٢/٦).

ثانياً: الآثار والنتائج غير المباشرة:-

نكتفي بالحديث عن آثار بدر وأبعادها التاريخية والفكرية والنفسية وندع الحديـــث عــن آثارها العسكرية والاقتصادية والسياسية إلى بحث آخر خاص بهذه الجوانب.

لقد كانت بدر ذات أثر حاسم في قريش والمدينة والقبائل العربية لاســيما القريبـــة مـــن المدينة إضافة إلى أثرها الكبير في مستقبل العالم كله وسنتناول آثارها بشيء من الإيضاح.

<u>أولاً: في قريش:-</u>

لقد كانت الآثار النفسية التي تركتها بدر في قريش بعيدة الغور في النفوس من جـــــهات عدة. منها (انظر الأحمد: ٨ وما بعدها ، ١٣٩٨هـ):

١. كانت معركة بدر ضربة موجعة ومفاجئة لقريش هزتها من الناحية النفســـية هــزاً عنيفــاً، وأشعرتها أن المسلمين أصبحوا قوة غالبة وأنهم مؤيدون بقوة أخرى لا يستطيع أحد حيالــــها شيئاً وجعل بعضهم يعتذر بهذه القوة عن هزيمتهم بقول أبي سفيان بن الحــــارث بـــن عبــد المطلب وقد سأله أبو لهب عما حصل في بدر: والله ما هو إلا أن لقينــــا القـــوم فمنحنــــاهم أكتافنا، يقتلوننا كيف شاءوا، ويأسروننا كيف شاءوا، وأيم الله مع ذلك ما لمت الناس، لقينــــا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض والله ما تليق[٣٠]. شيئاً ولا يقوم لها شي.(ابن كثير، البداية: ٣٠٨/٣). ويظهر من هذا القول اعتراف من شهد الواقعة مــــن العــدو بـــأن المسلمين مؤيدون بقوة غير عادية مما له الأثر البالغ في هز نفسية قريش.

٢. لقد أذهلت نتائج بدر رجالات قريش حتى الذين لم يحضروا المعركة وأذلتـــهم وأدهشـــتهم، يظهر ذلك من خلال أخبار الحيسمان بن عبدالله الخزاعي لأهل مكة عن نتائج بدر، جعل يعد أشراف قريش الذين قتلوا فذهل القوم وشكوا في صدقه بل في عقله، فقال صفوان بن أميـــة

بن خلف والله إن يعقل هذا فسلوه عني: فقالوا: ما فعل صفوان بن أمية؟ قال: هو ذاك جالساً في الحجر والله لقد رأيت أباه وأخاه حين قتلا. (الواقدي: ١٩٨٤).

٣. وفي مقابل هذا أعزت المؤمنين المستضعفين في مكة ورفعت معنوياتهم فجعلتهم يشاورون سادة قريش ويواثبونهم وما كانوا ليجرؤوا على ذلك قبل بدر، وفي ذلك يروي أبو رافع مولى رسول الله ﷺ وكان غلاماً للعباس وأنه كان رجلاً ضعيفاً ينحت الأقداح في حجرة زمزم: لما أخبر أبو سفيان بن الحارث أبا لهب أنهم لقوا في المعركة رجالاً بيضاً على خيل بلق- كما سبق- قال أبو رافع: تلك والله الملائكة. فغضب أبو لهب وصفعه صفعة شديدة فما كان من أبي رافع إلا أن هجم على أبي لهب وثاوره، وانتهى الأمر بأن نهضت أم الفضل زوجة العباس لتدافع عن أبي رافع فأخذت عمودا من عمد الحجرة وشجت رأس أبي لهب شجة منكرة فقام موليا ولم يعش بعدها إلا سبع ليال فرماه الله بالعدسة[٣١]. ومات ذليلاً ومغموماً (ابن كثير، البداية: ٣٠٩/٣) ولولا يوم بدر ما كان غلاماً كأبي رافع يجرؤ على مثاورة سيد من سادات قريش كأبي لهب.

٤. تركت بدر في نفوس قريش حزناً عظيماً وعذبتهم عذاباً معنوياً أليما ذلك أنهم لما تحققوا من النتائج ناحوا على قتلاهم وقطعت النساء شعورهن وعقروا خيولاً ورواحل، وكان يؤتى براحلة الرجل منهم أو بفرسه فيجتمع الناس حولها ويأخذون في البكاء، ثم تناهوا عن ذلك كيلا يسمع ببكائهم المسلمون فيشمتوا بهم، كما تناهوا عن السعي في فداء أسراهم كيلا يتأرب[٣٢] المسلمون في فدائهم. فكان إمساكهم عن البكاء وبقاء أسراهم في أيدي المسلمين مما زاد في عذابهم المعنوي حتى كادت أكبادهم تتصدع لأن البكاء على الميت مما يبل فؤاد الحزين (انظر: الواقدي: ١٩٨٤. ابن كثير، البداية: ٣٠٨/٣). وكذلك عود الأسرى مما يخفف المصاب. وتعبيراً عن هذا الألم يقول أحدهم لغلامه وقد سمع صوت نحيب في الليل: هل أحل النحيب؟ هب بكت قريش قتلاها لعلي أبكي على أبي حكيمة -يعني زمعة بن الأسود- فإن جوفي قد احترق (ابن كثير، البداية: ٣٠٩/٣، الطبري، التاريخ: ٤٦٤/٢).

ثانياً: آثار غزوة بدر في المدينة المنورة:-

أولاً: على المسلمين:-

كان لنتائج غزوة بدر آثار ظاهرة على المسلمين تتمثل في اتجاهين الأول: الآثار السلبية والثاني الآثار الإيجابية.

أولا: الآثار السلبية:-

١. الاختلاف على الغنائم الذي نزل بسببه قوله تعالى: (يسألونك عن الأنفال....) **فكشفت ثغرة** نفسية في الصف الإسلامي سارع القرآن الكريم إلى علاجها وسدها.

٢. ما أصاب بعض النفوس من غرور نفسي واستهانة بأمر العدو عولج في الحال وذلك أن عددا من المسلمين خرجوا من المدينة إلى الروحاء حين بلغهم الخبر يستقبلون النبي ﷺ والمجاهدين ويهنئونهم بالنصر فقال: سلمه بن سلامة: ما الذي تهنئوننا به؟ فو الله إن لقينا القوم إلا عجازا صلعا كالبدن المعلقة فنحرناها فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: أي ابن أخي أولئك الملأ(٣٣). فبين ﷺ مكانة العدو التي لا يستهان بها، ولولا نصر الله وتأييده ما كان النصر ليتحقق وما كانت شوكة قريش لتنكسر.

٣. كما أثرت هذه الغزوة في المسلمين المقيمين في المدينة ممن لم يشهد المعركة فألهبت في في نفوسهم الحماس إلا أن هذا الحماس تجاوز حدوده المطلوبة عند بعضهم ودفع آخرين إلى توقع النصر المحقق في كل وقعه مما حمل بعض النفوس إلى الطمع في استثماره لمطالب الدنيا، وقد ظهر هذا الأثر في غزوة أحد من خلال اندفاع الشباب وتحمسهم للخروج والمواجهة (انظر: ابن كثير، السيرة: ٣/٢٤). ومن خلال إرادة بعضهم الدنيا والطمع في الغنائم: "منكم من يريد الدنيا" (آل عمران: ١٥٢).

فكانت وقعة أحد وما نزل فيها من آيات علاجا ربانيا ناجعا سد هذا الخلل وأحكم البناء مما زاد القاعدة الإسلامية صلابة وقوة وحول السلبيات إلى إيجابيات.

ثانيا: الآثار الإيجابية:-

١. فرح المسلمون بنتائج هذه المعركة فرحا عظيما وازدادوا إيمانا بما هم عليه من الحق والهدى، ويقينا بالله سبحانه ناصر من يجاهد في سبيله مهما كثر العدو، وتكالبت المصاعب ولم يكن حالهم كحال المنافقين والذين في قلوبهم مرض حين قالوا: (غر هؤلاء دينهم) (الأنفال:٤٩). ولكنهم ازدادوا يقينا وثقة بدينهم وتحققا من أن النصر من عند الله.

٢. وكان لهذا أثر بالغ في رفع معنوياتهم ارتفاعا ترك أثره في أسلوب معالجتهم للأشخاص والطوائف الأخرى التي تساكنهم المدينة المنورة أو القريبين منها. لقد كانوا قبل بدر يصبرون على ما يلاقون من أذى هذه الطوائف وتعرضها لهم ولدعوتهم بما لا ينبغي، وعلى

الجملة نقول لقد تركت أثرا كبيرا في سياسة تعاملهم مع غيرهم بما يمكن التوسع فيه في بحث آخر يتناول الجانب السياسي لغزوة بدر.

٣. كما كان لهذه القوة المعنوية المتزايدة أن ترفع نفسياتهم واستعداداتهم إلى مستوى الأحداث والتحديات. وهذه حالة نفسية تعجز عن الوصول اليها جميع مناهج التربية البشرية ولايمكن تحقيقها في أي أمة كما حققها القرآن والأحداث التي تدور في فلكه؛ لقد نقلت المسلمين نقلة نوعية هائلة كانت حدا فاصلا بين الذلة والعزة. •ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة) (آل عمران: ١٢٣). وجعلت من المؤمنين أشخاصا لديهم الاستعداد المتزايد لمواجهة جميع الأخطار والتحديات على كثرتها وضخامتها مع قلة عددهم وضآلة مواردهم وقلة مناصريهم، ولقد ظهر ذلك في تحمل المزيد من الأعباء وبذل الكثير من الجهود حتى أصبحوا يشكلون قوة مرهوبة الجانب لها هيبتها التي يحسب لها كل حساب بعد أن كان ينظر اليهم على أنهم مشردون يبحثون عن مأوى يلتجئون إليه.

ولقد استطاعوا في فترة زمنية محدودة أن يحققوا منجزات تفوق الطاقة العددية فوق التصور المعهود في عالم البشر.

ثانيا: على المشركين والمنافقين:-

استاء مشركوا المدينة ومنافقوها لما سمعوا زيد بن حارثة وهو على القصواء -ناقة رسول الله ﷺ- يبشر بالنصر، ويعد أسماء قتلى قريش، ويسمي أسراها، وجعلوا يقولون: ما جاء زيد بن حارثة إلا فلا. وقال رجل من المنافقين لأسامة بن زيد، قتل صاحبكم ومن معه، وقال آخر لأبي لبابه قد تفرق أصحابكم تفرقا لايجتمعون بعده أبدا... قتل محمد وهذه ناقته نعرفها، وهذا زيد لا يدري ما يقول من الرعب وجاء فلا (الواقدي: ١/١١٥، ١٩٨٤. ابن كثير، البداية: ٣/٣٠٤).

غير أن الموقف قد انجلى، إذ لم يمض وقت طويل حتى سيق الأسرى إلى المدينة، عليهم شقران، مولى رسول الله ﷺ (نفس المصدر). ولما صدم المشركون بالحقيقة الواقعة التي لا تدفع استكانوا وصانعوا المسلمين ونافق كثير منهم، فأظهروا الإسلام حين ظهرت قوة الإسلام بتوصية زعيمهم رأس المنافقين حين قال لهم بعد بدر: هذا أمر قد توجه فلا مطمع في إزالته (انظر: خليل: ص ٣٦٦، ١٩٧٨). وأبطنوا الكفر ومضوا في طريق الذبذبة لا إلى هؤلاء ولا

إلى هؤلاء، كما وصفهم الله تعالى بقوله: (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هـؤلاء ومـن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) (النساء: ١٤٣).

ومن تلك اللحظة تبلورت حركة النفاق وأخذت طريقا منظما (انظر خليـل : ص٣٦٦، ١٩٧٨). وأصبحت توجه من خلال لقاءات سرية كشف عنها القرآن بقوله تعالى: (وإذا خلو إلـى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون) (البقرة:١٤). ففي جلسات الخلـوات تلـك تـبرم المؤامرات وتحاك.

ثالثا: على اليهود:-

أما اليهود فقد غاظتهم نتائج بدر وكان وقعها على نفوسهم وقع الصواعق حتى قال كعب بن الأشرف: لئن قتل هؤلاء لبطن الأرض خير من ظهرها: هؤلاء أشـراف النـاس وسـادتهم، وملوك العرب، وأهل الحرم والأمن قد أصيبوا ثم خرج إلى مكة فجعل يهجو المسـلمين ويرثـي قتلى قريش (الواقدي: ١/١٢١، ١٩٨٤، ابن كثير، البداية: ٦/٤). وكانوا يقررون فيما بينـهم أن محمدا هو رسول الله فكانوا يقولون: (هو الذي نجده منعوتا والله لا ترفع له بعد اليـوم رايـة الا ظهرت) (الواقدي: ١/١٢١/١٩٨٤).

وتحول بعدها أسلوب كيدهم للإسلام من الأسلوب الإعلامي في التشكيك بحقـائق هـذا الدين إلى محاولة الإجهاز عليه من خلال جبهات ثلاث (أنظر: خليل: ١٩٧٨/٣٣٣).

الأولى: تحريض الأعداء الظاهرين من مشركي قريش وقبائل العرب. الثاني: من خـلال الدسائس الخفية من داخل الصف الإسلامي باحتواء المنافقين وإبرام المؤامرات السـرية معـهم. الثالث: بالمواجهة العلنية واغتنام الفرص لضرب الدعوة الإسلامية كما فعلت قينقـاع والنضـير وقريظة.

ثالثا: آثار غزوة بدر في قبائل العرب وخارج الجزيرة:-

تغيرت نظرة القبائل العربية بعد بدر نحو المسلمين وأدركوا أنهم قوة خطيرة ذات أثـر في مصالحهم من الجوانب الدينية والاقتصادية والسياسية؛ فقد كان الكثير من هذه القبائل يدور في فلك قريش ليس دينا فحسب كون قريش أهل الحرم وسدنة البيت وصريح ولد إسماعيل وإنما مـن جانب اقتصادي أيضا حيث كانوا يجنون الكثير من الفوائد المالية من جراء مرور قوافل قريـش التجارية في أراضيها وحمايتهم لها واشتغالهم عيونا لحسابها.

ونتيجة لهذه الأوضاع بدرت نوايا للتحركات العسكرية لبعض هذه القبائل التي فوجئت بجيش المسلمين يجوب أراضيهم قبل خروجهم منها وكان من هذه القبائل بنو سليم وغطفان.

وكان من أصداء بدر خارج جزيرة العرب ما أخرجه الحافظ البيهقي في دلائله قال: أرسل النجاشي ذات يوم إلى جعفر بن أبى طالب وأصحابه فدخلوا عليه وهو في بيت عليه خلقان الثياب جالس على التراب. قال جعفر: فأشفقنا منه حين رأيناه على تلك الحال، فلما رأى ما في وجوهنا قال: إني أبشركم بما يسركم: إنه جاءني من نحو أرضكم عين لي فأخبرني أن الله عز وجل قد نصر نبيه ﷺ وأهلك عدوه وأسر فلان وفلان وقتل فلان وفلان، التقوا بواد يقال له بدر كثير الإدراك، كأني أنظر إليه، كنت أرعى به لسيدي، رجل من بني ضمرة، إبله. فقال له جعفر: ما بالك جالس على التراب ليس تحتك بساط وعليك هذه الاخلاق (من الثياب)؟ قال: إنما نجد فيما أنزل الله على عيسى عليه السلام أن حقا على عباد الله أن يحدثوا الله عزوجل تواضعا عندما أحدث لهم من نعمة، فلما أحدث الله عزوجل لي نصر نبيه ﷺ أحدثت له هذا التواضع. (البيهقي، دلائل: ٢/٤٠٤).

وليس بعيدا أن تعلم الدول المجاورة كفارس والروم بخبر هذه المعركة فلهم مصالحهم عند العرب ولهم عيونهم[٣٤]. ولكن شعورهم ونظرتهم واهتمامهم بالأمر يختلف عن موقف النجاشي فلعلهم لم يحفلوا بالأمر ولم يولوه أي اهتمام وألحقوه بما كان يدور بين العرب من حروب.

وأبعد الآثار وأكثرها عمقا وغورا في أعماق التاريخ ما تركته بدر من آثار على العالم كله وعلى تاريخ البشرية بأسرها حيث كانت بداية لتمكين الإسلام في الأرض، ولا نجد وصفا أوفى بحق يوم بدر من تسمية الله تعالى له بيوم الفرقان حيث كان فرقانا في تاريخ البشرية كلها وإبقاء على حياة أمة ولدت وقد كتب لها الحياة والبقاء والخلود لتكون خير أمة أخرجت للناس.

وكان من دعائه ﷺ وهو يستغيث ربه في ذلك اليوم (اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لاتعبد).

ولكن الله تعالى شاء أن يعبد وما أرسل رسوله بالهدى ودين الحق إلا ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون.

نتائج البحث:-

يظهر من خلال هذه الدراسة أن يد الله تعالى كانت من وراء الأحداث والتحركات الظاهرة للأحياء تدير الأمور وتدبر الأحداث لإحقاق الحق وإبطال الباطل.

ويجعل الله تعالى من سنته لإنجاز مايريد في عالم البشر أن تظهر الأحداث على صورة أثر لحركة الإنسان فيدفع الله الناس بعضهم ببعض لتظهر النتائج كأنما هي من صنع البشر ويجري الله تعالى من خلال ذلك سنته في نصر المؤمنين وإهلاك الظالمين.

كما يظهر مدى التجاوب بين حركة الكون والأشياء مع واقع الإنسان حيث يبتلى بوحي السماء ورسالات الأنبياء التي تهدف إلى تصحيح مسار الإنسان في الحياة؛ فالناس منها إما مؤمن وإما جاحد وكلما كان تجاوب المؤمنين مع هذه الرسالات إيماناً وتصديقاً وعملاً وتضحية وجهاداً اكمل وأتم كانت الأحداث تسير معهم جنباً إلى جنب وتتجاوب مع مطالبهم الإيمانية ومساعيهم لتحقيق أهداف الرسالات السماوية بأكمل وأفضل وأسرع وأنجح وأحكم مما يريدون ويدبرون، وإن كانت تلك الأحداث وهي تسايرهم تتسربل في ستر الخفاء حتى تبقى قلوبهم مشدودة إلى ربها وأعمالهم على غاية مالا يستطيعون من الاهتمام والنشاط حتى تظهر نتائج تلك الأحداث فتبدو كأنما هي نسيج واحد قد أحكم حبكه وأجمل تناسقه من لدن عزيز حكيم كما يظهر كجزء من هذا النسيج وعلى الوجه المقابل مكر الله تعالى بالظالمين وهو يسوقهم إلى حتفهم وهو مهووسون في كبرهم وخيلائهم وغرورهم ليفاجئهم بما يسوؤهم، فيأخذهم على حين غفلة من أمرهم لتكون الوقيعة بهم أشد وأنكى ليكبتهم فينقلبوا خائبين، فرأينا كيف التقى سير القافلة في زمانها ومكانها مع الموقع في موعده وخروج المسلمين بحالتهم النفسية والإيمانية مع حرص قريش على سمعتها ومالها وإصرارها على الوصول إلى ماء بدر بعينه لا قبله (رغم علمهم بنجاة القافلة) وكيف كتب للقافلة السلامة لتلتقي جميع هذه الأحداث والتقلبات نحو هدف واحد هو الذي أراده الله ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المشركون، وهو الذي إذا أراد أمراً هيأ له أسبابه.

كما تظهر عناية الله تعالى بنفوس المؤمنين الذين اختارهم الله تعالى أداة لإحقاق الحق وإبطال الباطل ليحدث لهم وبهم مايزيدهم إيماناً وتسليماً، فيخرجهم من بيوتهم بالحق ويسير بهم وهم يظنون ويرون أنهم خرجوا لدون المراد حتى وضعهم وجهاً لوجه أمام واقع لا محيد عنه، ثم يقوم لهم ما كشف لهم من ضعف بشري احتوته نفوسهم أو نقص في التدبير والاستعداد أتمه لهم مولاهم إنه نعم المولى ونعم النصير.

كما تكشف لنا هذه الدراسة عن مدى الفوارق التي تميز بها صف الإيمان في سمو الهدف وسلامة القصد وحسن التدبير والانضباط ووضوح الرؤية والحرص على الطاعة ووحدة الصف والكلمة وقوة العزم والتصميم والإرادة من صف الكفر والطغيان الذي تقوده الخيلاء والبطر، ويطمس بصره الكبر والجحود، وتتنازعه الآراء والأهواء وتنقصه الثقة بجدوى الهدف والغاية مما يحمل على التردد والأحجام.

كل ذلك إنما يبدي لنا أن حركة التاريخ لاتقوم على التغير العشوائي في عالم الحياة والناس ولا على الصراع المادي الذي يأخذ جزءاً وجانباً من مظاهر الحركة التاريخية ولكن الجوهر الحقيقي لحركة التاريخ إنما هو الصراع بين الحق والباطل والخير والشر ذلكم الصراع الذي تدبر له وتتولاه العناية الإلهية حتى إنها لتظهر أحياناً يد التدبير الإلهي في التدخل المباشر لإدالة الأيام وقد تختفي كثيراً وراء كثير من الأحداث التي تظهر متحركة على يد البشر.

التوصيات:-

ونختم هذا البحث ببعض مايرى الباحث الأخذ به في المجال النظري والعملي لاستيعاب مفاهيم السيرة بأوسع مدى والإفادة منها في الحياة العملية على أحسن الوجوه.

١. توجيه العناية إلى الاهتمام بدراسة السيرة النبوية في ضوء القرآن الكريم لما له من الأهمية في صحة المعلومات والكشف عن كثير من الحقائق التي تعد من أهم مواطن العبرة في السيرة.
٢. عدم الاكتفاء بدراسة العقيدة الإسلامية بمناهجها النظرية وإنما ينبغي النظر في أثرها الواقعي العملي في واقع الحياة وكيف فعلت في النفوس فعلها وظلت ترتقي بها إلى أعلى المستويات.
٣. السيرة النبوية مادة غزيرة لأسس التربية ومناهجها ووسائلها؛ فهي كفيلة بإتحافنا بمنهج تربوي إيماني متكامل إذا أنعمنا النظر فيها؛ فهي جديرة بالارتقاء بالإنسان إلى أعلى مراتب الكمال النفسي والإيماني.
٤. وفي مجال التربية تتحفنا بالقدوة الصالحة الفذة المثالية سواء في شخص النبي ﷺ أو في صحابته الكرام وسرعة تجاوبهم مع مفاهيم الإيمان والتوجيهات القرآنية والنبوية.
٥. إذا أرادت الأمة أن تسير في طريق النصر والظفر والنهضة فلا بد لها من الأخذ بالأسباب أسوة بإمام المجاهدين وسيد المرسلين، وإلا بقيت مجرد أمنيات وآمال وأحلام.

٦. إن أول مبادئ الأخذ بالأسباب أن يتميز الصف الإسلامي من غيره وتظهر منه معالم رفع كلمة الإله وجعلها العليا في نفوسهم ونظام حياتهم حتى يثبتوا صدقهم في الجهاد لرفع كلمة الله على غيرهم جاعلين نصب أعينهم قاعدة ثابتة: أن النصر من عند الله (وما النصر الا من عند الله) (الأنفال:١٠). ولايهبه الا لمن نصر دينه (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) (محمد:٧)، وهو الكفيل بأن يهيئ الأسباب لإنجاز مايريد.

٧. لا يصح تفسير التاريخ تفسيراً مادياً لا من حيث البقاء للأقوى ولا من حيث الصراع بين اليمين والشمال، وإنما تسير حركة التاريخ على وفق الصراع بين الخير والشر الموجه بالوحي السماوي المؤيد بالعناية الإلهية التي قد تدخل مباشرة في صنع الأحداث؛ فقد يهزم القوي وينتصر الضعيف وتنقلب جميع الحسابات والموازين المادية المدركة في المنظور البشري، وما تاريخ الأنبياء وإهلاك أعدائهم إلا شاهد على ذلك، وفي بدر أعظم النماذج والبراهين في قلب الموازين المادية وتدخل العناية الإلهية؛ فبدر آية في فئتين التقتا: فئة مؤمنة وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين، وهي على صغر حجمها من قلة الأعداد العسكرية المشاركة فيها، وفي قصر زمنها قياساً على كثير من الحروب والمعارك، إلا أنها لا تجارى في أثرها وأهميتها التاريخية حيث كانت قاعدة ومنطلقاً لقلب وجه التاريخ.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.

٢. الأحمد: د. أحمد محمود، آثار غزوة بدر، رسالة صغيرة، الحجم من القطع الصغير، مؤسسة علوم القرآن، ط١، ١٤٠٠هـ.

٣. الأصفهاني: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت. تحقيق صفوان عدنان، دار القلم والدار الشامية، ط٢، ١٩٩٧م.

٤. الألوسي: محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي.

٥. البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، دار الجيل.

٦. البنا: أحمد عبدالرحمن، الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد مع شرحه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني، دار الشهاب، القاهرة.

٧. البيضاوي: عبدالله بن عمر بن محمد، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، مطبوع مع حاشية الكازروني، مؤسسة شعبان، بيروت.
٨. البيهقي: أحمد الحسين، دلائل النبوة، تحقيق عبدالرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، ط١.
٩. الترمذي: أبو عيسى محمد بن سوره، السنن الجامع الصحيح، تحقيق: أحمد محمد شاكر، المكتبة الإسلامية.
١٠. الحاكم المستدرك على الصحيحين.
١١. حنبل: الإمام أحمد بن حنبل، المسند، صادر.
١٢. أبو حيان: محمد بن يوسف الأندلسي الغرناطي، البحر المحيط، ط٢، ١٤٠٣هـ.
١٣. الخضري: الشيخ محمد الخضري: نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، تحقيق: إبراهيم محمد علي، دار الجيل، دار عمار، ط٢، ١٤١٥هـ.
١٤. خليل: عماد الدين، دراسة في السيرة، ط٣، ١٣٩٨هـ، مؤسسة الرسالة، دار النفائس.
١٥. أبو داود: سليمان بن الأشعث السجستاني: السنن، إعداد وتعليق: عزت الدعاس، ط١، ١٣٨٨هـ.
١٦. الدرة: الشيخ محمد علي طه، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه، دار الحكمة/١٩٧٤.
١٧. الرازي: محمد فخر الدين بن عمر، التفسير الكبير ومفاتح الغيب، ط١/ دار الفكر.
١٨. رضا: محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ط٢/ دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.
١٩. الزمخشري: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة، بيروت.
٢٠. السباعي: د. مصطفى السباعي، السيرة النبوية دروس وعبر، ط١/ ١٣٩٢، دار الكتب العربية.
٢١. أبو السعود: محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم.
٢٢. شلتوت: محمود: تفسير القرآن الكريم: ط١٠/ ١٩٨٣، دار الشروق.
٢٣. الشوكاني: محمد بن علي بن محمد، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ط٢/ ١٣٨٣هـ، مصطفى البابي الحلبي.
٢٤. الطبري: محمد بن جرير، جامع البيان في تفسير القرآن. دار الكتب العلمية، جديدة ومرقمة الأحاديث.

٢٥. **القرطبي: محمد بن أحمد الأنصاري،** الجامع لأحكام القرآن، ط٣، دار الكتـــب المصريـــة، ١٣٨٧هـــ.

٢٦. القشيري: مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم بشرح النووي: المطبعة المصرية ومكتبتها.

٢٧. **قطب:** سيد قطب، في ظلال القرآن، ط٧، دار التراث العربي.

٢٨. ابن كثير: إسماعيل بن عمر: تفسير القرآن العظيم، دار إحياء الكتب العربية.

٢٩. ابن كثير: إسماعيل بن عمر: البداية والنهاية: ط٢، ١٩٧٧م، مكتبة المعارف.

٣٠. الماوردي: علي بن محمد بن حبيب، تفسير الماوردي.

٣١. عباس: أ.د. فضل حسن وسناء فضل، إعجاز القرآن الكريم، ١٩٩١م.

٣٢. المصري: د. محمد أمين المصري: من هدي سورة الأنفال. ط العبيكان/ الرياض، الناشـــر: مكتبة دار الأرقم، الكويت.

٣٣. ابن منظور: جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر.

٣٤. عرموش: أحمد راتب عرموش، قيادة الرسول السياســية والعســكرية، دار النفـــائس. ط١/ ١٩٨٩م.

٣٥. العلي: إبراهيم محمد العلي، صحيح السِّيرة النبوية، ط٣/ ١٩٩٨م، دار النفائس.

٣٦. النحلاوي: عبد الرحمن، أصول التربية الإسلامية وأساليبها، ط١/ ١٣٩٩هـــ، دار الفكر.

٣٧. النيسابوري: نظام الدين الحسن بن محمد الحسين القمـــي النيســابوري: غرائـــب القـــرآن ورغائب الفرقان، تحقيق ومراجعة إبراهيم عطوة عوض، ط١/ ١٩٦٤.

٣٨. هارون: عبد السلام هارون: تهذيب سيرة ابن هشام، ط٣/ ١٣٩٦هـــ، المؤسســـة العربيـــة الحديثة.

٣٩. ابن هشام: أبو محمد عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، تقديم وتعليق وضبـــط طـــه عبـــد الرؤوف سعد.

٤٠. الواقدي: محمد بن عمر، المغازي، تحقيق د. مارسدن جونس، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـــ- ١٩٨٤م.

ArabLawInfo (www.arablawinfo.com)
Tel: 00962 (6) 55 20 783 - Fax: 00962 (6) 55 20 784 - P.O.Box: 8734 Amman 11121 Jordan
Um-Othayna/6th Circle- King Faisal Street - Building No. (38)

الهوامش:-

(١) مسند الأمام أحمد: ٣٢٤/٥، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله ثقات ٩٦/٦، وابن جرير في التفسير: ١٧٢/٩، والحاكم في المستدرك، ١٣٥/٢، وقال على شرط مسلم ووافقه الذهبي، انظر لمزيد الإيضاح في تجريج هذا الحديث: صحيح السيرة النبوية إبراهيم العلي: ٢٥٢.

(٢) تفسير الطبري: ١٧١/٦ بأرقام ١٥٦٦٢، ١٥٦٦٥، ط دار الكتب العلمية، سنن أبي داود/ كتاب الجهاد، باب في النفل (١٥٦) حديث رقم: ٢٧٣٧-٢٧٩٣، ١٧٥/٣-١٧٧. المستدرك للحاكم: ١٣٢/٢، وقال الذهبي هو على شرط البخاري.

(٣) تفسير البيضاوي بحاشية الكازروني: ٤١/٣، تفسير (أبو السعود): ٥/٤، تفسير الطبري: ١٨١/٦، ط العلمية، وذكر المفسرون أقوالا عدة في إعراب هذه الكاف ومعناها البلاغي، راجع إضافة إلى المراجع المذكورة مجاز القرآن لأبى عبيدة معمر بن المثنى ٢٤٠/١، المحرر الوجيز لابن عطية تحقيق عبد السلام الشافي محرر دار الكتب العلمية، ٥٠١/٢-٥٠٢، معالم التنزيل للبغوي: ٣٢٧/٣، تفسير القرآن الكريم وبيان إعرابه/ الشيخ محمد علي طه الدرة: ١٨٨/٥.

(٤) أما صورة بيان الحق ففيها أقوال عدة: منها أنهم علموا أنهم ينصرون أينما توجهوا، ومنها انه وعدهم بالظفر بإحدى الطائفتين فإذا فاتت العير ظفروا بالنفير، ومنها أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يأمر إلا بالحق المأمور به من الله، فإذا أمر بالمسير إلى أي جهة كانت منشطا أم مكرها كان الواجب عليهم أن لا يترددوا ولا يجادلوا. ومنها أن يكونوا أيقنوا ان العير فد أفلتت وأن قريشا قد أقبلت فأصبح لا مناص من مواجهتهم؛ أي ظهرت بوادر الحرب ومبادئه. انظر الكشاف للزمخشري: ١٤٤/٢، تفسير (أبو السعود): ٦/٤، تفسير البيضاوي: ٢٣٥، وسبب التردد في هذه الأقوال عدم القطع بان النبي صلى الله عليه وسلم أخبرهم بأنه وعد إحدى الطائفتين قبل جدالهم أم بعده فإذا اخبرهم أن قريشا قد أقبلت وان الله وعده إحدى الطائفتين ثم اقبلوا بعدها يجادلون فلا محيص عن القول الأول والثاني.

(٥) هذه رواية ابن إسحاق عن أبي بكر وعمر أن كلا منهم قال فأحسن ولم يذكر قولهم، وجاء عن أنس في صحيح مسلم أنه تكلم أبو بكر فاعرض عنه (أي النبي صلى الله عليه وسلم)، وتكلم عمر فأعرض عنه، وأجاب عن ذلك الساعاتي بقوله: إنما أعرض النبي صلى الله

عليه وسلم عن أبي بكر وعمر رضى الله عنهما؛ لأنه كـان يقصـد بالمشـاورة اختبـار الأنصار... أقول ولم يعرض عن المقداد، وهو من المهاجرين لـولا ان مرمـى كلامـه اختلف عن قول من سبقه من المهاجرين، والأنصار يتمنون موقفه ويغبطونه عليه. والـذي جاء فيما ذكره ابن كثير من رواية ابن مردية تفصيل كرم أبي بكر وعمر حيث قال أبـو بكر: يا رسول الله بلغنا أنهم بكمان كذا وكذا، ثم قال عمر مثل قول أبي بكر، وهذا يعنـي أنهم يشيرون إلى العير، أنها فيما بلغهم بمكان كذا وكذا؛ مما يدل على أن نفوسهم لا تزال متوجهة إلى العير أو أنهم، يعني قريشا بمكان كذا وكذا، أي لا يزالـون بعيديـن عنـا، ومغزى الكلام أيضا طلب العير. ولهذا أعرض عنهما صلى الله عليه وسلم وقال: أشـيروا علي أيها الناس فتكلم المقداد بما تهلل به وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتكلم بعـده سعد بلسان الأنصار فقال ما قال.

(٦) انظر تفسير ابن كثير: ٤١٠/١، تفسير القرطبي: ١٩٢/٤، تفسير الطـبري: ٤٢١/٣-٤٢٥، ط دار الكتب العلمية، روح المعاني للالوسي ٤-٤٤-٤٥، تفسير المنار، محمـد رشـيد رضا: ٤/-١١٠.

(٧) خرج ابن أبي شيبة (راجع المصنف) وابن المنذر أن المسلمين بلغهم أن كـرز بـن جـابر المحاربي يريد أن يمد المشركين فشق ذلك عليهم فأنزل الله تعالى "الن يكفيكم" فبلغ كـرز الهزيمة فلم يمد المشركين، انظر روح المعاني: ٤٤/٤.

(٨) الكبت: الرد بعنف وتذليل المفردات، ٤٢٠ ويكون (بصرع الشيء على وجهه) النيسـابوري ٦٠/٤، خائبين: جمع خائب وهو من انقطع أمله .. فالخيبة انقطاع الأمـل وفرقـوا بيـن الخيبة واليأس بأن الخيبة لا تكون إلا بعد الأمل واليأس يكون بعده وقبله (انظر: الالوسي: ٤٩/٤، ونقيض الخيبة الظفر، أما نقيض اليأس فهو الرجاء، الشابوري: ٦٠/٤).

(٩) صحيح السيرة: إبراهيم العليم، ص ٢٤٧، قال: الهيثمي في مجمـع الزوائـد: ٨٢/٦، رواه أحمد بنحوه والبزار واللفظ له ورجالهما رجال الصحيح ... بقية الكلام من صحيح السـيرة رواه أبو يعلى: كشف الأستار رقم: ١٧٦٢، أحمد ١٤٧/١، الحاكم: ٣-١٣٤، وصححـه الحاكم ووافقه الذهبي والحديث إسناده صحيح.

(١٠) سنن الترمذي ك/التفسير، باب ٣ سورة ٢، رقم الحديث ٢٩٨٨: ٢٠٤/٥، قال أبو عيسـى هذا حديث حسن غريب، وهو حديث أبي الأحوص لا نعلمه مرفوعا إلا من حديث أبـي الاحوص.

(١١) معنى قول البيضاوي: "أما على تغيير الخطاب، أي: أن قوله تعالى سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق" منقطع عما قبله أي ليس من إيحاء الله تعالى للملائكة، إنما هو استئناف يخاطب به المؤمنين؛ أي تغير الخطاب من الملائكة إلى المؤمنين.

(١٢) ومعنى تلقين للملائكة: "أن ثبتوا الذين آمنوا بأن تقولوا لهم قال الله: (سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب) وأمروهم أن يضربوا فوق الأعناق، وحاصل الأمرين أن الضرب فوق الأعناق لم يقع من الملائكة. انظر: الزمخشري: ١٤٨/٢، النيسابوري: ١٣٢/٩.

(١٣) الملاحظ أن استعمال القرآن للربط على القلوب دائما في حق المؤمنين؛ ففي أصحاب الكهف قال (وربطنا على قلوبهم) (الكهف: ١٤)، وفي أم موسى عليه السلام قال: (لولا أن ربطنا على قلبها) (القصص: ١٠)، وهذه الآية، بينما يغلب الختم على القلوب في حق الكافرين "ختم الله على قلوبهم" (البقرة: ٧) ومثل هذا حرى أن نتلمس أسراره وليس هذا موضعه.

(١٤) يعد اختيار هذين الصحابيين لهذه المهمة من أذكى التدابير الاستخبارية للتحفظ على القوات الصديقة حيث هذان الصحابيان من جهينة ومساكن جهينة قريبة من بدر ولا يبعث اللقاء بهم من قبل العدو شيئا من الريبة حيث هما ليسا من قريش ولا من الأنصار، ولكن تدبير الله فوق ذلك ليمكن القافلة من الهرب حيث علم أبو سفيان بانتمائهما إلى يثرب كما سنرى.

(١٥) كان أهل يثرب يعلفون دوابهم رديء الثمر ويخرج النوى في البعر؛ فمنه عرف أبو سفيان أن هذا البعير الذي أناخ لأهل يثرب، وهذا إنما يدل على ذكاء أبي سفيان وقدرته على إفادة المعلومات مما لايكاد يؤبه له، ويؤخذ من هذا أنه لا ينبغي للجيش أن يستهين بذكاء الخصم وخبرته.

(١٦) وقع سؤال النبي صلى الله عليه وسلم عن كلا الطرفين ليوهم أنه ليس من أحدهما، وهذا من قبيل التعميه على العدو كي لا ينقل هذا الخبر من قبل هذا الشيخ إلى أي جهة أخرى.

(١٧) قتله المسلمون في سرية عبد الله بن جحش إلى نخلة، قتله واقد بن عبد الله التميمي، انظر تهذيب سيرة ابن هشام: ١٤٦/١.

(١٨) الفتح: إزالة الأغلاق والأشكال ومنها فتح القضية بفضل الأمر وإزالة الاغلاق عنها وإظهار الحكم فيها الذي يشهد لأحد الفريقين على الآخر، ومن هذا قوله تعالى: "ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق" المفردات ٣٧٠.

(١٩) أحنه: أهلكه.

(٢٠) سيرة ابن هشام: ٦٢٨/١، مسند الإمام أحمد: ٤٣١/٥، سنن النسائي، كتاب التفسير رقم ٢٢١، المستدرك للحاكم: ٣٢٨/٢، وقال حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه وأقره الذهبي انظر: تخريج الأثر في صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي: ٢٣٤، هامش(٧).

(٢١) صحيح مسلم/ ك الجهاد، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر الفتح الرباني ترتيب مسند الإمام أحمد / أحمد عبد الرحمن البنا: ٢١/٣٢-٣٣، وانظر تخريج الحديث في صحيح السيرة النبوية/ إبراهيم العلي ص ٢٣٣، هامش (٧).

(٢٢) صحيح البخاري/ ك التفسير، باب: سورة الحج: ١٢٣/٦، صحيح مسلم/ ك التفسير/١٨/١٦٦-١٦٧ آخر كتاب الصحيح.

(٢٣) تهذيب سيرة ابن هشام: ١٦١، هذا الدعاء بهذه الصيغة جاء عند ابن هشام وجاء عند غيره بصيغ أخرى في مسند احمد قال: "اللهم إن تهلك هذه الفئة اليوم لا تعبد" الفتح الرباني: ٣١/٢١، وفي صحيح مسلم من رواية عمر رضي الله عنه قال: (اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لاتعبد في الأرض) سبق تخريجه. والمعنى واحد وإن اختلف اللفظ ولعله محمول على إلحاح النبي صلى الله عليه وسلم بالدعاء، فكان يكرره في كل مرة بصيغة مغايرة في بعض الألفاظ موافقة في المعنى، وهذا المعنى إنما يدل على أن النصر في هذه الغزوة سر تمكين الإسلام في الأرض ولو هزم المسلمون فيها، لا قدر الله، لما قامت للإسلام بعدها قائمة؛ ولهذا يمكن أن تعد أوائل معارك الإسلام بل معارك الأرض الفاصلة، والمعركة الفاصلة هي التي غيرت مجرى التاريخ أو غيرت مجرى الأحداث لما قبلها عما بعدها. انظر: آثار غزوة بدر، د. أحمد محمود الأحمد، ص٧.

(٢٤). انظر: صحيح البخاري/ك الوضوء، ٦٩/١ من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه يذكر فيه إلقاء قريش سلى جزور على ظهر النبي صلى الله عليه وسلم وهو ساجد، فدعا عليهم قال: اللهم عليك بقريش ثلاث مرات فشق عليهم إذ دعا عليهم، وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة، ثم سمى: اللهم عليك بأبي جهل وعليك بعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط وعد السابع فلم يحفظ (أي الراوي) قال(أي ابن مسعود): فوالذي نفسي بيده لقد رأيت الذين عد الرسول صلى الله عليه وسلم صرعى في القليب قليب بدر.

هذا الحديث رواه البخاري في كتاب الوضوء/ باب "إذا ألقي على ظهر المصلي قذر أو جيفة"، وكتاب الصلاة باب "المرأة تطرح عن المصلى شيئا من الأذى" وكتاب مناقب الأنصار باب "ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المشركين" ورواه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الجهاد والسير "باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين والمنافقين"، وجاء في بعض روايات البخاري أن السابع هو عمارة بن الوليد، كتاب الصلاة. ورواه الإمام أحمد في المسند، انظر الفتح الرباني: ٢١٨/٢٠، انظر صحيح السيرة النبوية/ إبراهيم، ص٩٣-٩٥.

(٢٥)(٢٦) صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير/ باب الإمداد بالملائكة: ٨٦/١٢، بشرح النووي، وأخرجه عدد من المصنفين منهم: أحمد في المسند، انظر الفتح الرباني: ٢٣/٢١، والطبري في التفسير ٢١٧/٦، برقم ١٦٣٠٧، وفي التاريخ: ٤٧٦/٢، والبيهقي في السنن الكبرى، ك قسم الفيء والغنيمة، باب "ما جاء في مفاداة الرجال منهم بالمال": ٣٢١، ودلائل النبوة، ٤٠٧/٢-٤٠٨، وأبو عبيد في الأموال، ص ١١٣، والترمذي: ك التفسير: ٢١٧/٥، برقم ٣٠٨٤٠، والحاكم في المستدرك: ٢١/٢.

(٢٧) يشير القرآن في هذا التوجيه إلى مبدأ هام من مبادئ الصراع وهو الاحتفاظ بزمام المبادأة لاستثمار النصر إلى أبعد مدى ممكن تفوت فيه الفرصة عل العدو من إعادة تنظيمه أو بناء قوته.

(٢٨) انظر: الفتح الرباني: ٣٢/٢١، قال الطبري في التاريخ، كان الذي اسر العباس أبو اليسر، كعب بن عمرو، أخو بني سلمة، وكان أبو اليسر رجلا مجموعا وكان العباس رجلا جسيما، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي اليسر: "كيف أسرت العباس يا أبا اليسر؟" فقال: يا رسول الله، لقد أعانني عليه رجل ما رأيته قبل ذلك ولا بعده، هيئته كذا وكذا! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعانك عليه ملك كريم. تاريخ الأمم والملوك/ الطبري: ٤٦٣/٢.

(٢٩) انظر: نور اليقين في سيرة سيد المرسلين/ محمد الخضري، تحقيق إبراهيم محمد علي، ص ١٤٦، قال المحقق: قصة فداء العباس جاءت من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. انظر: المطالب العالية: ٤٣٠٠، وقال ابن حجر هذا إسناد صحيح رواه ابن مردويه في التفسير والمسند عن أحمد بن الحسن عن عبدالله بن محمد عن ابن اسحاق وأخرجه الطبراني من حديث يزيد بن هارون ... وأخرجه ابن جرير في التفسير: ٧٣/١٤، تحقيق أحمد شاكر وإسناد هذا الحديث صحيح، وقال الهيثمي في المجمع ٢٨/٧، رواه الطبراني

في الأوسط الكبير باختصار، ورجال الأوسط رجال الصحيح غير أن إسحاق قد صرح بالسماع. ومما ورد في سياق هذا الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ من العباس مائة أوقية من ذهب وكان موسرا، قال ابن كثير: وهذه المائة عن نفسه وعن ابني أخويه عقيل ونوفل وعن حليفه عتبة بن عمرو أحد بني الحارث بن فهر، كما أمره بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: علام ندفع وقد استكرهنا على الخروج فقال عليه الصلاة والسلام: لقد كنت في الظاهر علينا... ثم قال للرسول صلى الله عليه وسلم لقد تركتني فقير قريش ما بقيت قال: كيف وقد تركت لأم الفضل أموالا وقلت لها إن مت فقد تركتك غنية. فقال العباس: والله ما اطلع على ذلك أحد. انظر السيرة النبوية لابن كثير: ٤٦٢/٢.

(٣٠) تبقى.

(٣١) العدسة: بثرة قاتلة تخرج كالطاعون وقلما يسلم منها، وهذه البثرة تشبه العدسة تخرج في مواضع من الجسد من جنس الطاعون، لسان العرب: ١٣٢/٦، مادة عدس.

(٣٢) يشتد.

(٣٣) سيرة ابن هشام: ٦٤٣/١-٦٤٤، وتتمه الخبر: أولئك الملأ لو رأيتهم لهبتهم ولو أمروك لأطعتهم ولو رأيت فعالك مع فعالهم لاحتقرتهم وبئس القوم كانوا على ذلك لنبيهم... ثم قال له صلى الله عليه وسلم معالجا ومبينا سر النصر عليهم. "وأما ما قلت في القوم فإنك عمدت إلى نعمة من نعم الله تزهدها" فاعتذر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقبل ذلك منه... المغازي/ محمد عمر الواقدي: ١١٦/١.

(٣٤) مما يدل على متابعة الروم والقبائل أحداث الجزيرة أن رجلا من جذام (إحدى قبائل العرب في بلاد الشام) أخبر قافلة أبي سفيان أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان قد عرض للعير في خروجها وأنه لن يتركهم في رجعتهم. انظر المغازي/ الواقدي: ٢٨/١، كما كان ملك غسان على علم بمقاطعة النبي صلى الله عليه وسلم للثلاثة الذين خلفوا بعد تبوك. انظر صحيح البخاري: ٦/٦-٧، باب غزوة تبوك.